خطب عمر بن عبد العزيز بين البلاغة والتداولية

راوية حسين جابر خليل.
قسم البلاغة والنقد، كلية البنات الأزهرية بطيبة، جامعة الأزهر، مصر
البريد الالكتروني: Rawia-khalil.80@azhar.edu.eg

الملخص:
تعددت قراءات الأثر الأدبي مستفيدة من الاتجاهات اللسانية إلى أن وصلت إلى التداولية تلك القراءة التي تراعي مستويات عدة مسؤولة عن بناء الخطاب: كبنيته اللغوية وقواعد التخاطب وحال المتكلم والمخاطب، وعلاقة البنية بظروف الاستعمال حيث السياق الخارجي للحدث الكلامي، من هنا يقوم البحث على تطبيق الدرس اللساني التداولي على الخطاب العربي ممثلا في خطب عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – مع الربط بين البلاغة والتداولية، بما للتداولية من جذور في البلاغة العربية؛ فقد عنيت البلاغة منذ القدم بحال المخاطب ونصت على ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وجاءت عناية القدماء بالأفعال الكلامية في دراستهم للمعاني المجازية للإنشاء، والأغراض البلاغية للخبر، وقيام الخبر مقام الإنشاء وغيرها، هذا من جهة وبالاستفادة من معطيات الدرس التداولي الحديث من جهة أخرى، وقد كانت خطبه – رضي الله عنه – من النجاعة بمكان ، مما يشهد بأنه أحسن إقامة العلاقة بينه وبين جمهوره المخاطب، وإقناعه بما يرمي إليه بما ضمن خطابه من خصوصيات تتناسب مع متلقيه، مؤسسا على ما بينهما من الخلفية المعرفية المشتركة، فجاء الحدث الكلامي مؤثرا فيه دافعا له إلى السلوك الذي يريده صاحب الخطاب محدثا ردة فعل استقامت لها شئون الدولة الإسلامية في عهده، وكانت الخطابة من أنسب الأجناس الأدبية للدراسة التداولية، لما تتوفر عليه من عناصر سياقية، وما لها

من استراتيجية توجيهية وأدلة حجاجية، وما تنتظره وتترقبه من نواتج تأثيريـــة على المخاطبين.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة، التداولية، السياق، الأفعال الكلامية، الحجاج.

Umar ibn Abd al-Aziz Sermons between Rhetoric and Pragmatics

Rawia Hussien Ghaber Khalil
Department of Rhetoric and Criticism, Tiba College For Girls, Al-Azhar University, Egypt .
E-Mail: Rawia-Khalil.80@azhar.edu.eg

Abstract :

There were many literary legacy approaches derived from the linguistics studies until the crystallization of the Pragmatics Approach; which consider several levels responsible for discourse structure as its syntax, interlocution principles, speaker and addressee status, and the relation of the structure with the usage conditions where the external context of verbal action. Hence, this paper is based on the application of Pragmatics linguistics studies on the Arabic discourse represented by Umar ibn Abd al-Aziz, May Allah be pleased with him, sermonslinking between rhetoric and pragmatics. Since pragmatics has roots in Arabic rhetoric; since the dawn of time rhetoric has concerned with the status of the addressee, and stated on the necessity of discourse context agreement. Ancients had concerned during their diction's metaphoric meanings studies with speech act and rhetorical purposes of predicate, and replacing diction with predicate... etc. This in the matter of the modern Pragmatics linguistics studiesoutcome usage, on the other hand, Umar ibn Abd al-Aziz-May Allah be pleased with him- sermons was efficacious; which emphasizes that he constructed a good connection with his targeted audience, and convincing them of his aim, including his sermons manners that were agreeable for the recipients founded upon the their common background; the speech act became influential, motivating the behavior that the speech author wanted. Causing reaction

that straightened the affairs of Islamic State during his reign. Oratorywas the most proper literary genre for pragmatics, that it includes contextual elements that have mentoring strategy, argumentative evidences and the expected outcomes and the impact on the addressees .
Key words: Rhetoric, pragmatics, context, speech act, argumentative.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعددت قراءات الأثر الأدبي مستفيدة من الاتجاهات اللسانية إلى أن وصلت إلى التداولية تلك القراءة التي تراعي مستويات عدة مسؤولة عن بناء الخطاب: كبنيته اللغوية، وقواعد التخاطب، وحال المتكلم والمخاطب، وعلاقة البنية بظروف الاستعمال حيث السياق الخارجي للحدث الكلامي.

من هنا يقوم البحث على تطبيق الدرس اللساني التداولي على الخطاب العربي ممثلا في خطب عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه– مع الربط بين البلاغة والتداولية، بما للتداولية من جذور في البلاغة العربية؛ فقد عنيت البلاغة منذ القدم بحال المخاطب ونصت على ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وجاءت عناية القدماء بالأفعال الكلامية في دراستهم للمعاني المجازية للإنشاء، والأغراض البلاغية للخبر، وقيام الخبر مقام الإنشاء وغيرها، هذا من جهة، وبالاستفادة من معطيات الدرس التداولي الحديث من جهة أخرى، من هنا كان عنوان البحث (خطب عمر بن عبد العزيز بين البلاغة والتداولية).

وقد كانت خطبه – رضي الله عنه– من النجاعة بمكان، مما يشهد بأنه أحسن إقامة العلاقة بينه وبين جمهوره المخاطب، وإقناعه بما يرمي إليه، بما ضمن خطابه من خصوصيات تتناسب مع متلقيه، مؤسسا على ما بينهما من الخلفية المعرفية المشتركة، فجاء الحدث الكلامي مؤثرا فيه دافعا له إلى السلوك الذي يريده صاحب الخطاب محدثا ردة فعل استقامت لها شؤون الدولة الإسلامية في عهده.

وكانت الخطبة من أنسب الأجناس الأدبية للدراسة التداولية؛ لما تتوفر عليه من عناصر سياقية، وما لها من استراتيجية توجيهية، وأدلة حجاجية، وما تنتظره وتترقبه من نواتج تأثيرية على المخاطبين.

مشكلة البحث وأهميته:

تتمثل مشكلة البحث في تطبيق المنهج التداولي على خطب عمر بن عبد العزيز مزاوَجًا مع التحليل البلاغي؛ لتتفرع عنها التساؤلات التالية:

- ما الصلة بين البلاغة والتداولية؟
- هل تبدأ التداولية من حيث تنتهي البلاغة أو يسيران في خطين متوازيين؟
- ما الجديد الذي تقدمه التداولية في تحليل النصوص؟
- هل للتداولية أن تستغني عن البلاغة؟
- ما مدى إمكانية تطبيق المنهج التداولي على خطب عمر بن عبد العزيز؟

أما أهمية البحث فترجع إلى:

١-توسيع آفاق تحليل الخطاب بالاستفادة من معطيات المناهج الحديثة (التداولية بالتحديد).

٢-الكشف عن شخصية عمر بن عبد العزيز الحجاجية، وفلسفته اللغوية والكلامية، وقدرته على إقناع مخاطبيه.

٣-الاهتمام بالنص النثري وتحليله؛ حيث لم يلق حظه من عناية الدارسين على نحو مالقي الشعر.

أهداف البحث:

١-عقد الصلة بين التراث والحداثة.

٢-الاستفادة من المنهج التداولي في تحليل الخطاب.

٣-سبر أغوار خطاب عمر بن العزيز، والوقوف على شخصيته الحجاجية، وفلسفته اللغوية والكلامية.

الدراسات السابقة:

لم أقف على كل دراسة بلاغية أو تداولية تناولت خطب عمر بن عبد العزيز.

لكن ثمة بعض الدراسات التي تناولت بعض النصوص العربية وفق المنهج التداولي مثل:

١- في العلاقة بين تحليل الخطاب والتداولية نموذج تطبيقي من جريدة التبكيت والتنكيت، هدى عبد الغني باز، مجلة جسور-مصر العدد الرابع يناير ٢٠١٦م.

٢- الإقناع في قصة إبراهيم -عليه السلام- مقاربة تداولية، رسالة ماجستير، بوصلاح فايزة، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، للسنة الجامعية ٢٠٠٩ -٢٠١٠م.

٣- تلقي الخطاب الشعري من منظور تداولي في قصيدة "منشورات فدائية على جدران إسرائيل" لنزار قباني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، للطالب /طارق خلايفة، كلية الآداب واللغات -جامعة محمد خيضر *بسكرة*، للسنة الجامعية ٢٠١٤-٢٠١٥م .

منهجية البحث:

يقوم البحث على المنهج التحليلي التداولي الذي يمزج بين الآليات البلاغية التي حواها الخطاب كوسائل للإقناع، وبين حيثيات المنهج التداولي وآلياته (كالإشاريات، والافتراض المسبق، والأفعال الكلامية، والحِجَاج) التي وُظِّفت لها البلاغة، وقادت إليها، مما يكشف عن جماليات النص ويُمْتِع بها من جهة، وعن أدلته وحججه ويُقْنِع بها من جهة أخرى.

ويتكون البحث من: مقدمة: في أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه، ومنهجه وخطته، وتمهيد: في التداولية (مفهومها ومصطلحاتها)، وعناصر السياق – سياق الخطب التي يتناولها البحث– (المرسِل، والمرسَل إليه، موضوع الخطاب)

ثم التطبيق على الخطب، حيث يُعنوَن لكل خطبة بعنوان مناسب، وعند الشروع في تحليلها يسير البحث مع السياق مجليًا الوسائل البلاغية، ودورها التداولي، وما حوت الخطبة من الإشاريات، والأفعال الكلامية، والحجج والأدلة، وأثر ذلك كله في جمهور المتلقين.

وقد اعتمد البحث في التحليل خمس عشرة خطبة، هي الخطب الطوال، متجاوزا بعض الخطب القصار التي لم يختلف مضمونها العام واستراتيجية بنائها عن مضمون ما تم تحليله واستراتيجية بنائه، استغناء بالنظير عن نظيره، وحتى لا يطول البحث بما لا يقدم جديدا.

ثم ذُيل البحث بخاتمة: في نتائجه وتوصياته، وقائمة للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

وكانت المصادر المعتمد عليها في استقاء مادة البحث الأولية هي: جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت، والعقد الفريد، والأغاني، والأمالي، وتاريخ الطبري، وسيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، وإعجاز القرآن، للباقلاني، وأبرز المراجع التداولية المستعان بها: استراتيجيات الخطاب، للشهري، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، لمحمود نحلة، والتداولية عند العلماء العرب، لمسعود صحراوي، وغني عن البيان أن الاعتماد في التأصيل على أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والإيضاح.

تتقدم الباحثة بجزيل الشكر لجامعة القصيم ممثلة بعمادة البحث العلمي على دعمها المادي لهذا البحث تحت رقم (٣٧٧٧) خلال السنة الجامعية ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨ م

The author gratefully acknowledge Qassim uneversity, he represented by the Deanship of Scientific Research, on t material support for this research under the number (٣٧٧٧) during the academic year ١٤٤٠AH/ ٢٠١٨AD

تمهيد

قبل الشروع في التحليل والتطبيق لا بد للبحث من مهاد نظري موجز، يعرِّف بالتداولية وأهم قضاياها والمصطلحات المتعلقة بها، ويلقي الضوء على عناصر السياق (المرسِل، والمرسَل إليه، وموضوع الخطاب).

أولا: التداولية:

تدرس التداولية اللغة في الاستعمال؛ لذا تتقاطع مع عدة حقول معرفية (لغوية، ونفسية، واجتماعية، وفلسفية ...)، وعليه وردت لها عدة تعريفات: من أبرزها ما قدمه فرانسيس جاك من كونها " دراسة اللغة باعتبارها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا" [١] إذن موضوعها اللغة لكن ليست منعزلة على نحو ما كان من المدارس الشكلية، وإنما باعتبارها أداة للتخاطب والتواصل في سياق اجتماعي محدد.

وجاء عن يول "التداولية دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم .... دراسة المعنى السياقي .... دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال" [٢] ، وهذا التعريف تبرز فيه بعض مبادئ التداولية (القصد، والسياق، والاستلزام الحواري).

وعرفت -أيضا- بأنها "دراسة تهتم باللغة في الخطاب، والوسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي" . [٣]

---

(١) المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، تر/ سعيد علوش، مركز الإنماء القومي -الرباط ١٩٨٦م، ص١٢.

(٢) التداولية، جورج يول، تر/ د. قصي العتابي، ط١ الدار العربية للعلوم ناشرون -بيروت، دار الأمان -الرباط ٢٠١٠م، ص١٩.

(٣) التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، تر/ صابر الحباشة، ط١ دار الحوار للنشر والتوزيع -سورية ٢٠٠٧م، ص ١٨،١٩.

وتُحَدّ أيضا بأنها "الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل" (١)

وورد عن فان دايك أن" الفكرة الأساسية في التداولية هي أننا عندما نكون في حالة التكلم في بعض السياقات فنحن نقوم أيضا بإنجاز بعض الأفعال المجتمعية وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال" (٢)

ومن أشمل تعريفاتها أنها "اتجاه في الدراسات اللسانية، يعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، وبخاصة المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق (٣) ، وتشمل هذه المعطيات:

١-معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته، وتكوينه الثقافي، ومن يشارك في الحدث اللغوي.

٢-الوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.

٣- المعرفة المشتركة بين المتخاطبين وأثر النص الكلامي فيهما (٤)

وتعنى التداولية "بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة .

---

(١)التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، تر/ صابر الحباشة، ط١ دار الحوار للنشر والتوزيع -سورية ٢٠٠٧م ، ص ١٩.

(٢) النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق ٢٠٠٠ م، ص٢٩٢.

(٣) البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، ضمن أعمال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، سلسلة اللسانيات ع٦، المطبعة العصرية -تونس ١٩٨٧م، ص١٢٥.

(٤) البحث اللساني والسيميائي، طه عبد الرحمن، كلية الآداب والعلوم-الرباط١٩٨١، ٣٠١-٣٠٢ .

وملائمة للموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم. " [١]

والآن نعرض أهم قضايا التداولية التي تتراوح بين الأفعال الكلامية والحجاج والإشاريات والافتراض المسبق والاستلزام الحواري:

١- الأفعال الكلامية:

نظرية الأفعال الكلامية وضعها أوستين، حيث يرى أن "النطق بالجملة هو إنجاز لفعل أو إنشاء لجزء منه " [٢] حسب أوضاع ومواقف.

وهو يرى أن "الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال تؤدى في الوقت نفسه الذي ينطق فيه بالفعل الكلامي: الفعل اللفظي: وهو النطق بأصوات لغوية ينتظمها تركيب نحوي صحيح تؤدي معنى هو المعنى الأصلي وله مرجع يحيل إليه، والفعل الإنجازي: ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد والتحذير والأمر والنصح.. إلخ، والفعل التأثيري : الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع أو المخاطب سواء أكان تأثيرا جسديا أم فكريا أم شعوريا" [٣]

وقدم أوستين تصنيفا خماسيا لأفعال الكلام على أساس قوتها الإنجازية:

١- أفعال الأحكام: في نحو حكم يصدره قاضٍ أو مسؤول ...

٢ – أفعال القرارات: وتتمثل في اتخاذ قرار معين كالإذن والطرد والتعيين ...

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ١٩٩٢م، ص٣١.

(٢) نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) أوستين، تر/ عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق –الدار البيضاء ١٩٩١م، ص ١٦.

(٣) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ٢٠٠٢م ص ٦٨.

٣-أفعال التعهد: تعهد المتكلم بفعل شيء كالوعد والضمان والتعاقد والنذر ...

٤- أفعال السلوك: وتتمثل في ردود أفعال لأحداث ما كالاعتذار والشكر ...

٥ – أفعال الإيضاح: وتستخدم لإيضاح وجهة النظر، أو بيان الرأي مثل الاعتراض، والإنكار، والموافقة، والتصويب...[١]

على أن التطوير الأساسي للنظرية كان على يد تلميذه (سيرل) الذي جعل الأفعال الكلامية خمسة أصناف هي:-

١-الإخباريات (التقريريات): والغرض الإنجازي فيها جعل المتكلم مسؤولا عن وجود وضع للأشياء، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق أو الكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها وتشمل التأكيد، والوصف ...

٢-التوجيهيات: وغرضها الإنجازي حمل الشخص على القيام بفعل معين، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة، وتشمل الأمر والنهي ...

٣- الالتزاميات: وغرضها الإنجازي التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها هو القصد، وتشمل الوعد والوصية ...

٤-التعبيريات: وغرضها الإنجازي هو التعبير عن حالة نفسية، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، حيث لا علاقة بين الكلمات والعالم ، وشرط الإخلاص فيها هو الصدق، وتشمل الاعتذار والمواساة .

(١) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) أوستين، ص ١٧٤ وما بعدها، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٤٦.

٥- الإعلانيات: والغرض الإنجازي فيها إحداث تغيير عن طريق الإعلان، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات، وتشمل الإعلام، والإخبار، والإعلان ...[١]

٢-الحِجاج:

يحتل الحِجاج مكانة بارزة في التداولية؛ إذ يمثل أحد أهم أركانها إلى جانب نظرية الأفعال الكلامية، فهو يسعى إلى تحليل تقنيات الخطاب، التي تجعل المرسِل يحظى بإذعان المرسل إليه، وتدفعه إلى مراده.

ويعرف بيرلمان الحجاج في مؤلفه (مصنف في الحجاج) بأنه "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم " [٢]

أما وظائفه فهي "أولا: الإقناع الفكري الخالص، ثانيا: الإعداد لقبول أطروحة ما، ثالثا: الدفع إلى الفعل" [٣].

فالحجاج له دور بالغ في التأثير على السامع، من هنا تبرز له غاية تداولية.

---

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٤٩،٥٠.

(٢) O. tyteca Trait de l argumentation: La nouvelle & Ch.perelman(rhetorique .preface de Michel Meyer .del universite de Broxelles ١٩٩٢ .op.: نقلا عن

الحجاج في البلاغة المعاصرة، (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ط١ دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت ٢٠٠٨م ص١٠٧.

(٣) الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص١٠٧.

وأطراف الحجاج ثلاثة: المحاج، والسامع، وموضوع الخطاب "تقابل المصطلحات الأرسطية: الإيتوس، والباتوس، واللوغوس" [١] وجميعها محل اهتمام التداولية.

أما ديكرو وأنسكومبر فقد وجها اهتمامهما إلى الوسائل اللغوية، فقد "وضع اللغوي الفرنسي ديكرو في سنة١٩٧٣م نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها: أننا نتكلم عامة بقصد التأثير" [٢] ومن أهم ما أسفرت عنه هذه النظرية السلم الحجاجي.

والمبدع في الخطاب الحجاجي يعمل على استثمار كل ما من شأنه أن يمنح أو يزيد في فعالية الخطاب ونجاعته، من تقنيات مختلفة: لغوية وبلاغية، وأدلة صناعية أو غير صناعية، ومكونات معرفية واجتماعية ونفسية وغيرها. وبقدر نجاحه في توظيفها وترتيبها يتحقق الهدف من الخطاب.

٣-الإشاريات:

يحتوي الخطاب على عناصر لغوية مبهمة لا يتضح معناها إلا بمرجعها من خلال السياق، مثل ضمائر التكلم والخطاب، وأسماء الإشارة، وما يدل على

(١) الحجاج مدخل نظري وتطبيقي، محمد الولي، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته –دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، تحرير وإشراف /حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، ودار الروافد الثقافية ناشرون –الجزائر، بيروت ٢٠١٣م ٦٢/١.

(٢) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط١ العمدة في الطبع ٢٠٠٦م، ص١٤.

زمان أو مكان ...، وقد أولاها الدرس التداولي عناية لما تؤديه من أغراض ومقاصد طبقا للمقام الذي تساق فيه، وهي أنواع منها [1]:

١-إشاريات شخصية: ضمائر التكلم، وضمائر الخطاب، تمثل عناصر إشارية لأن السياق لازم لمعرفة من المتكلم ومن المخاطب.

٢-إشاريات زمانية: كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمن التكلم، مثل: أمس، وغدا، والآن...

٣-إشاريات مكانية: عناصر إشارية يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب، ويكون لتحديد المكان أثره في العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو وجهة، مثل هنا وهناك، وفوق وتحت وأمام وخلف ...

٤-إشاريات اجتماعية: ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين، من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة ومودة.

٤-الافتراض المسبق:

معرفة قارة في ذهن كل من المتكلم والمخاطب يبني عليها المتكلم خطابه واثقا من أن المخاطب يستطيع فهم خطابه وتأويله بناء عليها، ذلك أنه " في كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة ففي

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ١٨-٢٥.

الملفوظ (أغلق النافذة) و(لا تغلق النافذة) في كليهما خلفية (افتراض مسبق) مضمونه أن النافذة مفتوحة " [١]

وهو ما نقله الباحثان ج.براون، وج.يول عن ستالناكر" إن عمليات الافتراض هي ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلما بها لدى كل أطراف المحادثة " [٢].

والافتراض المسبق مسؤولية المتكلم، ذلك "أن المتكلمين يفترضون أن مستمعيهم عارفون بعض المعلومات، لا تذكر هذه المعلومات كونها تعامل على أنها معروفة، ولذا فإنها تعتبر جزءا مما يتم إيصاله دون قوله ... هو شيء يفترضه المتكلم يسبق التفوه بالكلام، أي أن الافتراض المسبق موجود عند المتكلمين، وليس في الجمل " [٣]

٥-الاستلزام الحواري:

يعد أحد أهم جوانب الدرس التداولي، ورائده هو (جرايس) الذي انطلق من فكرة أن الناس قد يقصدون ما يقولون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقولون عكس ما يقصدون، فأراد أن يفرق بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات بقيمها اللفظية، وما يقصد هو ما يريد المتكلم تبليغه للسامع عن

(١) التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) د. مسعود صحراوي، ط١ دار الطليعة –بيروت ٢٠٠٥م، ص ٣٠،٣١.

(٢) تحليل الخطاب، ج ب .براون ، ج. يول ، ترجمة وتعليق /د. منير التريكي ،د. محمد لطفي الزليطني، جامعة الملك سعود –الرياض ١٩٩٣م. ص٥١.

(٣) التداولية، يول، ص٥١.

طريق الفعل غير المباشر، فأراد أن يقيم جسرا بين ما هو صريح وما هو متضمن في القول، فنشأت عنده فكرة الاستلزام.(١)

"فالاستلزام الحواري يتعلق بالدلالات الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي. ومن ثم، يرتبط الاستلزام الحواري بنظرية الأفعال كما هي عند أوستين وسيرل. أي: ينتقل الكلام من نطاق حرفي وقضوي مباشر إلى معنى حواري استلزامي غير مباشر، ويتحكم فيه المقام أوالسياق التداولي" (٢)

وقد بنى (جرايس) نظريته على مبدأ التعاون الذي يتفرع عنه أربعة مبادئ: هي الكم، والكيف، والمناسبة، والطريقة، تفاصيلها مبثوثة في مظانها، وإذا حدث انتهاك لأحدها نتج عن الكلام استلزام حواري أي معنى ضمني حسب السياق غير معناه الصريح.(٣)

كانت هذه إطلالة سريعة اتضح بها مفهوم التداولية وعُرِفت أهم قضاياها، والآن إلى عناصر السياق.

ثانيا: **عناصر السياق**:

١- المرسِل: عمر بن عبد العزيز بن مروان، الخليفة الصالح، أبو حفص، خامس الخلفاء الراشدين.[.....] ولد عمر بحلوان، قرية بمصر، وأبوه أمير عليها سنة إحدى، وقيل: ثلاث وستين وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وكان بوجه عمر شجة، ضربته دابة في جبهته، وهو غلام، فجعل أبوه يمسح الدم عنه، ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك لسعيد، أخرجه ابن عساكر.

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٣٣.

(٢) التداوليات وتحليل الخطاب، جميل حمداوي، ط١، ٢٠١٥م، ص٣٠.

(٣) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٣٤.

روى عمر بن عبد العزيز عن أبيه، وأنس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وابن قارظ، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وعامر بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبي بكر بن عبد الرحمن، والربيع بن سمرة، وطائفة.

وروى عنه: الزهري، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومسلمة بن عبد الملك، ورجاء بن حيوة، وخلائق كثيرون.

جمع القرآن وهو صغير، وبعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها، فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه العلم، فلما توفي أبوه طلبه عبد الملك إلى دمشق وزوجه ابنته فاطمة.

وكان قبل الخلافة على قدم الصلاح أيضًا، إلا أنه كان يبالغ في التنعم، فكان الذين يعيبونه من حساده لا يعيبونه إلا بالإفراط في التنعم والاختيال في المشية، فلما ولي الوليد الخلافة أمر عمر على المدينة، فوليها من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين، وعزل، فقدم الشام.

قال زيد بن أسلم عن أنس رضي الله عنه: ما صليت وراء إمام بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أشبه صلاة برسول الله -صلى الله عليه وسلم- من هذا الفتى -يعني: عمر بن عبد العزيز- وهو أمير على المدينة.

بويع بالخلافة بعهد من سليمان، في صفر سنة تسع وتسعين، فمكث فيها سنتين وخمسة أشهر، نحو خلافة الصديق -رضي الله عنه- ملأ الأرض عدلًا، وردّ المظالم، وسن السنن الحسنة.

توفي عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- بدير سمعان -بكسر السين- من أعمال حمص لعشر بقين -وقيل: لخمس بقين- من رجب سنة إحدى ومائة، وله حينئذ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر، وكانت وفاته بالسم، كان بنو أمية قد

تبرموا به؛ لكونه شدد عليهم وانتزع من أيديهم كثيرًا مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرز فسقوه السم.[1]

حُسن بيانه:

كان انكبابه على علوم الدين والحديث والقرآن سبيلا لإرهاف حسه اللغوي بين قوم من خالصة العرب .... ولم يؤمن عمر بقول لا يحققه العمل، بل كان يرى القول والعمل شيئا واحدا، وإنما أحدهما بعض الآخر، ... وقد كان يصدر عن نية صارمة وقلب صادق حين يتكلم؛ ولذلك سمعت آذان الناس في مدته ومنه صوتا صارخا لم تسمعه من قبل إلا في صوت رسول الله وبعض أصحابه، وكانت عظته وقراءته تثير القلوب والأشجان حتى يرتج المسجد بالبكاء وكأن حيطانه تبكي، حتى إذا رأى الناس قد أخذوا بقوله وفتنوا ببلاغته قطع كلامه مظنة أن يطغى رنينه على معناه ومخافة المباهاة .... وكما كان عمر صادقا في قوله، كان حسن الأداء حتى إنه ليفتن المسافر عن سفره فيقيم ليسمعه .... وما من قول له إلا وهو يضرب في البلاغة بسهم، حتى اشتهرت له كلمات صار لهن مقام الحكمة وبليغ الأثر من مثل قوله (إني لست بمبتدع ولكني متبع)، (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وغيرهما.

وقد كان سريع الخاطر في سبك الكلام؛ فالعدة لديه حاضرة والصدق يعينه، ..... ولما آمن أشد الإيمان بفعل البلاغة في نفوس الناس لم تخمد همته فيها، ورأى حسن البيان شرطا لازما للحاكم عامة، فإذا تولى الحاكم هداية الناس وإرشادهم كانت له ألزم، ولم يغب عنه أن لإجادة القول سيطرة على القلوب

(١) ترجمة مختصرة من: تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السيوطي تحقيق/ حمدي الدمرداش، ط١ مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص١٧١-١٨٣.

وهيمنة على النفوس، وقد يقاد بها الناس كما تقاد الإبل الآنفة لتحمل على الطريق. [1]

من خلال هذا الوصف الذي أطر لشخصية المرسل يمكن القول إن صورة عمر بن عبد العزيز ومكانته في المجتمع تجعل لخطابه قوة إقناعية عظيمة تجعل المستمع أمامها لا يجد بدا من التسليم، وتدفع إلى السلوك القويم.

وتستمد خطبه سلطتها من مقدرته اللغوية والخطابية ومن سلطة الحاكم، فتكتسب قدرة على التأثير.

٢-المرسَل إليه: جمهور الرعية ممن يحضر الخطب، وسائر المسلمين في أرجاء الدولة الإسلامية كمستمع كوني.

٣- موضوع الخطاب: والسياق العام للخطب تغيير الحال عما كان عليه عند أسلافه -حيث لاقى الناس ما لاقوا على أيدي حكام بني أمية- والنصح والحث على التكافل والزهد في الدنيا، والتذكير بالموت والآخرة، وتوجيه الرعية إلى ما فيه النفع، وتختص بعض الخطب بتفصيل لا يخرج عن السياق العام، وقد اقتضى هذا السياق لفت انتباه الناس، والحرص على جذبهم إليه عن طريق النداء والأمر، واستدعى تأكيد نصوصه للإقناع بمراده.

(١) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، عبد العزيز سيد الأهل، دار نهضة مصر -القاهرة (د.ت) ص ١٨٠-١٨٣.

الخطبة الأولى: شورى فقهاء المدينة

في سنة ٨٧هـ ولَّى الوليدُ عمرَ بن عبد العزيز المدينة، فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة من فقهائها، فدخلوا عليه، فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

"إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانًا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأُحَرِّج [١] اللهَ على من بلغه ذلك إلا بلَّغني".

فخرجوا يجزونه خيرًا.[٢]

يحرص الرجل على اصطحاب الفقهاء الصالحين، ويطلب منهم العون على الحق وعلى رفع الظلم عن المظلومين، ولا يستبد برأيه.

إذن رسم –منذ البداية– صورة الحاكم الذي يستحق أن يكون له السمع والطاعة.

لم يأت الرجل المدينة يهدد ويتوعد المخالفين بأن يكون يوم كيوم الحرة، وإنما جاء مصلحا، يريد أن يحق الحق، ويرفع الظلم، ويطلب من الفقهاء المعونة على ذلك.

(إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه) موجه الحجاج هنا يدل على أن الكلام يتجه وجهة إيجابية، فهو يبدأ بداية مطمئنة، مؤكدا مقصده بـ(إن) والقصر

---

(١) المُتَحَرِّجُ الكافُّ عن الإثم، .... والتحريج التضييق (لسان العرب، مادة: حرج).

(٢) تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، ط٢ دار التراث – بيروت ١٣٨٧ هـ ٦/ ٤٢٧، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (العصر الأموي)، أحمد زكي صفوت، ط١ المكتبة العلمية –بيروت ١٩٣٣م، خطبة رقم ١٧٩، ٢٠١/٢ .

بـــ(إنما) أي ما دعوتكم إلا لما تؤجرون عليه، لينفي كل ما يمكن أن يكون ســـببا للدعوة مما يمكن أن تحدث به نفوسهم.

والجملة مبنية على افتراض مسبق هو تساؤلهم عن سبب الدعوة؛ لذا بدأ بالتأكيد (إني إنما).

والترغيب بقوله (لأمر تؤجرون عليه) يعتمد علـــى العـــرف الاجتمـــاعي والديني الذي يقتضي تنفيذ ما فيه أجر بإقبال وحب.

إنه أراد أن يكونوا مستشاريه (ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو بـــرأي من حضر منكم) وتعد الجملة من الأفعال الكلامية الالتزامية، حيث يلـــزم المـــتكلم نفسه بفعل في المستقبل عن قصد وإخلاص، يلزم نفسه بأن يستشيرهم كلما عنَّ له أمر.

وفي سبيل إقناعهم بذلك يورد مراده في صورة قصـــر بطريـــق النفـــي والاستثناء، فهو يؤكد لهم ذلك على وجه لا يدع مجالا للشك في أنه لـــن يقضـــي أمرا منفردا، ولن يستبد برأي، فكان كلامه حجة احتوت على قياس يمكن تأويلـــه هكذا:

أنتم أعوان على الحق.

ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم.

ن[1]: أنتم مستشاريَّ

ولا يقتصر الأمر على ما يكون بين يديه، بل يتعداه إلى إبلاغه مـــا غـــاب عنه؛ رفعا للظلم وإقامة للعدل يقول (فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأُحَرِّج اللهَ على من بلغه ذلك إلا بلَّغني) وفي هذا إحالة إلى العالم الخارجي وما يحدث فيه ولا يكون على مرأى ومسمع منه، وهنا يحاج بصاحب الســـلطان

(١) تعني النتيجة.

الأعظم سبحانه (فأُحَرِّج اللهَ) ليلزمهم تبليغه بما غاب عنه من تعدٍ أو ظلامة إذ يبني على افتراض إمكان إخفاء شيء عنه، وهنا تتعدى الجملة الإقناع إلى الدفع إلى العمل وهو التبليغ، فالجملة قامت مقام القسم، والقسم يؤكد المقسوم عليه، والتأكيد داع إلى الإقناع ومحفز عليه، فالتداولية هنا ظل للبلاغة يتبعها.

وقد تعادلت إشاريات المتكلم مع إشاريات المخاطبين في العدد، حيث للمتكلم الياء في (إني، ولي، وبلغني) والتاء في (دعوت) والضمير المستتر في (أريد، وأقطع، وأحرج)، وللمخاطبين الكاف في (دعوتكم، رأيكم، منكم، وبلغكم) والواو في (تؤجرون، وتكونون) والتاء في (رأيتم) سبع إشاريات للمتكلم وسبع للمخاطب، مما يوحي بأنه يسوي بينه وبينهم في اتخاذ القرار في الأمور، وأنه أمر مشترك يتجاذبه الطرفان، لا يستبد به واحد.

و(عامل لي) إشارية اجتماعية رسمية تشير إلى علاقته بالمتكلم، التي تبين أن ما يقترف من ظلم يعود وباله على المتكلم.

ويلاحظ أنه استخدم من الآليات البلاغية ما يلي:

١-القصر (إنما، والنفي والاستثناء)

٢-التشويق في قوله (لأمر تؤجرون عليه) ليكون موجها للحجاج حافزا على الإصغاء، أدعى للاستمالة.

٣- التنكير في (أحدا، وعامل) وقد أفاد العموم، فدخل فيه من كان من أهله وخاصته، أي فإن رأيتم أحدا أو بلغكم عن عامل ولو كان من أهلي وخاصتي بلغوني؛ فالحق والعدل يعلوان على كل العلاقات والصلات ووشائج القربى، فهذا يقنع المخاطبين بجدية الرجل في إحقاق الحق وإقامة العدل، وفي (ظلامة) تنكير تقليل، أفاد أنه لا يتهاون في الظلم ولو كان قليلا، فربما جر في غده إلى كثير، فلا

بد من حسمه بالعقاب قبل أن يستفحل أمره، كل هذا من شأنه أن يرسم شخصية المحاج، ويكشف عن أبعادها، وبالتالي يقنع مخاطبيه.

ترى هل حققت هذه الآليات البلاغية وظلالها التداولية نجاعة الخطاب؟ هذا ما تجيب عنه العبارة (فخرجوا يجزونه خيرًا) فقد تحقق تأثير الخطبة في مخاطبيه، ومعنى هذا أنهم اقتنعوا به وبمراده، وأنهم سيلزمون أنفسهم بما حرج عليهم فيه.

الخطبة الثانية: لا مهرب من الموت

روى المسعودي في مروج الذهب، أنه لما أفضى إليه الأمر، كانت أول خطبة خطب الناس بها أن قال:

"أيها الناس، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها[١]، فما بقاء فرع بعد أصله؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل[٢] فيهم المنايا، وهم فيها نصب المصائب، مع كل جرعة شرق [٣]، وفي كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أجله".

وأورد القالي في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول، وهي:

"ما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما سيزول؟ وإنما الشيء من أصله، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نهب للمصائب، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، ولا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، فأين المهرب مما هو كائن؟ وإنما نتقلب في قدرة الطالب،

(١) صحة العبارة (إنما نحن فروع من أصول قد مضت) أو (إنما نحن فروع قد مضت أصولها).

(٢) خرج القوم يَنْتضِلون إِذا استَبَقوا في رَمْي الأَغْراض (لسان العرب، مادة: نضل) أي تتسابق إليهم المنايا..

(٣) الشَّرَقُ: الشجا والغُصّة (لسان العرب، مادة: شرق).

ما أصغر المصيبة اليوم، مع عظيم الفائدة غـدا، وأكبـر خيبـة الخائـب فيـه، والسلام".[1]

يبدأ بالإنشاء لجذب الأسماع واسترعاء الانتباه (أيها الناس) بحذف حرف النداء إسراعا في الوصول إليهم، ودلالة على قربهم من قلبه، فليسوا في حاجة إلى وساطة حرف النداء، والنداء إنجاز لفعل الإقبال.

(إنما نحن من أصول قد مضت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟) ينطلق من مبدأ حجاجي مسلم به هو هلاك السابقين؛ ليستدرج المخاطب إلى النتيجة التي يريدها، ويمكن أن يصاغ القياس هكذا :

إنما نحن فروع قد مضت أصولها

الفروع تؤول مآل الأصول

ن: نحن ماضون

وقد اتخذ (إنما) طريقا للقصر لأن الأمر معلوم لجمهور المخاطبين مسـلم به، وأتبع بالاستفهام (فما بقاء فرع بعد أصله؟) الذي فعله الإنجازي النفي، أي لا بقاء للفرع بعد أصله، وإنما يلحقه عما قريب، أو التقرير ليقر المخاطب بأن بقاءه بعد أصله قليل.

وما أجمل التصوير في قوله (وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضـل فيهم المنايا) إذ يشبه الناس بأغراض قد نصبت لترميها المنايا بسـهامها، فهـم

(١) مروج الذهب، المسعودي، المطبعة البهية المصـرية –القـاهرة ١٣٤٦ هـ، ٢/ ١٦٨، والأمالي، لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب –القـاهرة ١٩٧٦م، ٢/ ١١٣ وسيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، لابن الجوزي، ضبطه وشرحه وعلـق عليه/ الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلميـة –بيـروت ٢٠٠١ م، ص٢٥٠، وجمهـرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٠، ٢٠٢/٢.

مقصدها الموجهة إليه ولن تخطئهم المنايا كما لا يخطئ السهم الغرض، بل تصيبهم واحدا واحدا إن لم يكن اليوم فغدا.

تراه يبغي التأثير النفسي والانفعالي من هذه الصورة التشبيهية بالإضافة إلى الإقناع، حين يتخيل المرء نفسه عرضة للإصابة بسهم المنية في أي وقت، فعلامَ ولمَ يحرص على الدنيا؟ حينها يزهد فيها، ويعمل لدار المستقر.

والاستلزام الحواري للصورة التشبيهية هو سرعة انقضاء الدنيا وتوليها؛ فكل ستناله المنية حتما ولو بعد حين.

والحصر ب(إنما) يعمل على قوة الحجة، فهم ليسوا إلا أغراضا للمنايا ينحصر أمرهم في ذلك، وجملة (تنتضل) صفة لنكرة غايتها التداولية هي الإيضاح.(١)

وقبل أن تحين مناياهم (هم فيها[الدنيا] نصب المصائب) تتابع عليهم مع كل حدث، في كل شربة ماء، وفي كل لقمة عيش (مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص) والتنكير إبهام فهما شرق وغصص لا يعلم مداهما إلا الله.

وتراه يستخدم الإطناب تقنية للإقناع؛ إذ أجمل في قوله(هم فيها نصب المصائب) ثم فصل بقوله (مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص،لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى) ففراق النعمة من جملة المصائب، وفي هذه الجملة والتي بعدها يستخدم القصر بقصد التأكيد؛ ليمثل فعلا كلاميا تقريريا؛ فقد قصر (نوال النعمة) على كونه (بفراق أخرى) وهذا يمثل أيضا آلية بلاغية للحجاج ترمي إلى الإقناع بالزهد في الدنيا، والتوجه نحو الآخرة.

وقصر (تعمير يوم) على كونه (بهدم آخر من الأجل) وهذه حقيقة يغفل الناس عنها، فعمل على تذكيرهم بها، أي أنتم ماضون ماضون إلى الموت، فكل

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي ص١٨٥.

يوم ينقص من أعماركم، وقد اتخذ آلية التقابل للتدليل على إنتاج الشيء لنقيضه، إذ التعمير ينتج هدما، هذه المفارقة تعمل على استرعاء انتباه المخاطب، وحسن إصغائه إلى ما يسمع؛ ليعي ويقنع.

و(اليوم) هنا إشارية زمانية إلى قصر المدة.

رواية القالي في الأمالي:

(ما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجى، وما الحيلة فيما سيزول؟) يقرع الأسماع بهذه الاستفهامات المتتالية؛ ليشد انتباه المخاطبين وغرضه النفي، أي لا جزع مما لا بد منه، ولا طمع فيما لا يرجى، ولا حيلة فيما سيزول، فالاستفهام هنا من الأفعال الكلامية، تولد عنه فعل إنجازي هو النفي.

والجملة الأولى مبنية على افتراض مسبق موجود في الخلفية المعرفية للمخاطبين هو الجزع من الموت، والثانية على طمع الناس في متاع الدنيا والمال الذي تحت سلطة الخلفاء، والثالثة على احتيال الناس في طلب المال.

وصلة الموصول في الجمل الثلاث غايتها التداولية إيضاح الإبهام في الاسم الموصول، ويعد هذا من تقريريات سيرل، فالتداولية الغربية لم تضف إلى العربية شيئا ذا بال في هذا الشأن؛إذ عُرِّف الاسم الموصول في العربية بأنه الاسم المبهم الذي يفتقر إلى صلة وعائد،[1]فالصلة تقوم بتوضيحه، ومن دواعي تعريف المسند إليه بالموصولية في البلاغة العربية "كونه غير معلوم إلا بالصلة" [2]أي أن الصلة هي التي تجعله معلوما واضحا للسامع بعد أن كان مبهما بدونها.

---

(١) ينظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، الأشموني، ط١ دار الكتب العلمية –بيروت ١٤١٩هـ- ١٩٩٨ م، ١/١٢٦ .

(٢) الإشارات والتنبيهات، محمد بن علي الجرجانى، تحقيق أ د/عبد القادر حسين. ط مكتبة الآداب ١٩٩٧م، ص٣٣.

(وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، فأين المهرب مما هو كائن؟، وإنما نتقلب في قدرة الطالب، ما أصغر المصيبة اليوم، مع عظيم الفائدة غدا، وأكبر خيبة الخائب فيه) أي تسعون إلى حتوفكم بأنفسكم بهدم أيام أعماركم، وهذه صورة فيها تشخيص للحتوف، أبرزها في صورة أشخاص لديهم معاونون يساعدونهم فيما يطلبون، وفي ذلك إقناع للمخاطبين بالمآل المحتوم مصحوبا بالتأثير النفسي والانفعالي للاستعارة.

لذلك يعضد بقوله (فأين المهرب مما هو كائن؟) ليؤول الاستفهام إلى النفي، أي لا مهرب مما هو كائن، وهو بهذا الاستفهام يضع المخاطب أمامه، ويوجه إليه السؤال ليرجع إلى نفسه باحثا عن الجواب؛ ليجيب بالنفي مُقِرا، فيكون المخاطِب أقام على المخاطَب حجة من نفسه.

ويستعمل الحصر بـ(إنما) في قوله (وإنما نتقلب في قدرة الطالب) ليفيد حصر القدرة في الطالب، ونفيها عن المطلوب، أي لا نملك من أمر أنفسنا شيئا، وتعد الجملة من الأفعال الكلامية التقريرية.

وقد استخدم الاستراتيجية التضامنية في تعبيره بضمير المتكلم الجمعي المستتر في (نتقلب) ليدل على تماهيه مع المخاطبين؛ ليقول: أنا منكم ومعكم، وهذا يوعز إليهم بقبول نصحه والإذعان له.

(ما أصغر المصيبة اليوم، مع عظيم الفائدة غدا) لعله يقصد مصيبة الموت أو الفقر، أي هي صغيرة هينة اليوم إذا ما ربحنا الغد أي الآخرة، فالجملة مبنية على افتراض مسبق هو عد الناس الموت أو الفقر مصيبة عظيمة.

وتراه يستخدم فنية التقابل بين (صغر المصيبة اليوم) و(عظم الفائدة غدا) لتتضح الصورة بالتضاد؛ فيرجح المخاطب كفة الغد الباقي وما فيه من فائدة عظيمة، فيعمل لأجله، ويعزف عن يومه الفاني.

(وأكبر خيبة الخائب فيه) أي في الغد، فما أكبرها من خيبة؛ إذ لا مجال للتوبة ولا تصحيح للمسار، وهنا يستخدم التعجب كآلية لغوية للحجاج، ويعضدها بالتكرار الصوتي في (خيبة الخائب) لترسيخ التصاق الصفة بمن يفرط ويشتري الدنيا بالآخرة.

والوصف (اسم الفاعل) (الخائب) آلية لغوية للحجاج حيث "يعتبر اسم الفاعل من نماذج الوصف التي يدرجها المرسل في خطابه بوصفها حجة؛ ليسوغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد، لتنبني عليه النتيجة التي يرومها" [1] وقد صنف به المرسل من يشتري الدنيا بالآخرة في فئة باءت بالخيبة، وبنى عليه التعجب من كبرها وفداحتها.

وقوله (قد مضت قبلنا أصول نحن فروعها) إشارية زمانية تبحث في عمق الماضي فلا تجد باقيا ممن كان، (اليوم، وغدا) إشاريتان زمانيتان تقارنان الحاضر بالمستقبل، وقوله (فأين المهرب؟) إشارية مكانية تشير إلى استحالة وجود مكان للهروب.

(١) استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط ١ دار الكتاب الجديد المتحدة –بيروت ٢٠٠٤م ص ٤٨٨.

الخطبة الثالثة: التقوى

وروي أنه لما دفن سليمان بن عبد الملك، وخرج من قبره، سمع للأرض رجة، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين، قربت إليك لتركبها، فقال: ما لي ولها؟ نحوُّها عني، قربوا إلي بغلتي، فقربت إليه، فركبها. وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنحَّ عني، ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين، فسار، وسار معه الناس، حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فقال:

"أيها الناس: إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم".

فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فَلِ أمرنا باليمن والبركة، فلما رأى الأصوات قد هدأت، ورضي به الناس جميعًا، حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال:

"أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله -عَزَّ وَجَلَّ- خَلَفٌ، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أمر دنياه وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكرَ الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أبًا حيًّا لمعرق في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عَزَّ وَجَلَّ، ولا في نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحدًا باطلا، ولا أمنع أحدًا حقًّا، إني لست بخازن، ولكني أضع حيث أمرت، أيها الناس: إنه قد كان

قبلي ولاة تجترون[1] مودتهم، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة لـه، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم".[2]

يبدأ بـ(أيها الناس) والنداء إنجاز لفعل الإقبال، فهو من الأفعال الكلامية التوجيهية.

ويُتبِع النداءَ إخبارًا بقوله (إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه) ويلقي الكلام مؤكدا بـ(إن) و(قد) ليفيد عمق قناعته بأن تولي الحكم ابتلاء قل من وفق في تلقيه والصبر عليه والقيام بأعبائه.

وأشار إلى الحكم بقوله (بهذا الأمر) ولم يذكره بلفظه تحاشيا للتلبس به، ونبذا له.

ونراه يبرأ منه بقوله (من غير رأي كان مني) ثم يتبع (ولا طلبة له) ثم يتبع (ولا مشورة من المسلمين) فيسبب عليه (وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم) إنه يريد الخلاص على أية حال.

وهنا تراه يشبه البيعة بأطواق في الأعناق، ثم يحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه وهو الخلع من الأعناق على سبيل الاستعارة المكنية، وهنا تتضح حجاجية الصورة واتخاذها وسيلة للإقناع، و"الاستعارة من الوسائل التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها

(١) تجتذبون (لسان العرب، مادة: جرر).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٥٤،٦٥، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، تحقيق أحمد عبيد، ط٦ عالم الكتب –بيروت ١٩٨٤م، ص٤١، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨١، ٢٠٣/٢.

بشكل كبير جدا، ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية، وما دمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري" [1] وقد شاع هذا المجاز حتى قارب أن يكون حقيقة، فهو يريد أن يقول: أنتم في حل من هذه البيعة. فالاستلزام الحواري للجملة: لست طامعا في الخلافة، بل أنا متنازل عنها. ويؤكد كلامه –حتى لا يتوهم كونه متجملا– بـ(إن) و(قد) لأن الناس يأبون إلا أن يكون هو الخليفة، وينكرون تنحيه عنها، والتأكيد يدخل ضمن التقريريات من أقسام الأفعال الكلامية.

وحين أصر الناس على اختياره حاكما وأصبح الأمر حتما شرع في توصية الناس وعظتهم، فبقية الخطبة حتمها السياق الحالي وهو رد فعل الناس على خلعه البيعة من أعناقهم وإباؤهم إلا أن يكون هو الخليفة، هنا سار الكلام في اتجاه آخر، وقد مثل إقرارا وقبولا للبيعة، حيث قام مقام الموصي لهم بتقوى الله، حيث إحساسه بالمسؤولية عنهم، ووضع سياسة العطاء، وبين لهم متى تجب على الناس طاعته.

ينطلق من خلفية معرفية مشتركة بينه وبين المخاطبين هي العقيدة الإسلامية بروافدها من القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي، فيقول (أوصيكم بتقوى الله) في هذه الجملة قام الخبر مقام الإنشاء (اتقوا) للتأكيد والتقرير؛ لأن الوصية أدل على الحرص على ما ينفع من توجيه الأمر المباشر. والجملة من الأفعال الكلامية عند التداوليين؛ إذ هي إنشاء للوصية وحث على التزامها، فقد "انطلق أوستين من ملاحظة بسيطة مفادها أن الكثير من الجمل التي ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية لا تصف مع ذلك أي شيء، ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصق أو الكذب، وبالفعل لا تستعمل هذه الجمل لوصف الواقع بل لتغييره، .... فقد فكر

(١) اللغة والحجاج، ص ١٠٥.

في جمل من قبيل (آمرك بالصمت) .... أو (أعدك بأن آتي غدا) لا تقول شيئا عن حالة الكون وإنما تسعى إلى تغييره، فقائل (آمرك بالصمت) يسعى إلى فرض الصمت على مخاطبه، يحتمل أنه يريد الانتقال من حالة الضجيج إلى حالة السكون، .....، وقائل (أعدك بأن آتي غدا) يخلق التزاما وضربا من العقد الأخلاقي بينه وبين مخاطبه، وهو عقد غير موجود قبلا" [1] وهو ينشد التغيير بإنشاء هذه الوصية، وقد سبقت البلاغة العربية إلى هذا في وقوع الخبر موقع الإنشاء[2].

(فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَفٌ) تتضح صورة التأكيد وبراعة منح الحكم للتقوى وسلبه عن غيرها؛ فالتقوى تخلف كل شيء، لكن لا شيء يخلفها أو يعوضها إذا فقدت.

وقد جاءت الجملة تعليلا للوصية بالتقوى، واستعمل فيها من الآليات اللغوية للحجاج التأكيد بـ(إن) والتكرار وزينها بمحسن بديعي هو الإرصاد للفقرة الذي يجعل مخاطبيه ينطقون به مُقرّين قبل أن يصل إليه، وليس بعد ذلك مبتغى؛ فإذا نطقوا بكلمة (خلف) في آخر الفقرة فقد سلموا واقتنعوا بفحوى العبارة، وبالتالي يحملهم هذا على الجد في تحصيل التقوى.

(واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمر دنياه) فإصلاح الآخرة كفيل بإصلاح الدنيا، وهنا يضمِّن كلامه من معاني القرآن

(١) التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، آن روبول، جاك موشلار، تر/ د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، مرجعة د. لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ط١ دار الطليعة للتوزيع والنشر –بيروت ٢٠٠٣م، ص ٣٠.

(٢) ينظر الإيضاح مع البغية، الخطيب القزويني والشيخ عبد المتعال الصعيدى، نشر مكتبة الآداب ١٩٩٩م ٢/٢٧٥.

معنى قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل٩٧. وهذا من قبيل الاحتجاج بالشاهد، واستمداد السلطة من معاني كتاب الله تعالى.

ويقابل بين (الآخرة) و(الدنيا) على نحو يجعل لأولاهما الفوق والغلبة، فإذا صلحت صلح أمر الدارين معا، فإن السامع إذا ورد عليه الأمر بالعمل للآخرة دار بخلده السؤال: وماذا عن هم الدنيا ومطالبها، من ذا يكفله لي؟ فجاءت الطمأنة بأن الله يكفيك أمرها، وهو الضامن لها شريطة أن تضمن أنت العمل للآخرة، وفي هذا إقناع للمخاطب، ودفع له إلى العمل الصالح الذي يكفل له صلاح الدارين معا في آن واحد، فجملة (فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمر دنياه) مبنية على افتراض مسبق هو سؤال السامع عن أمر الدنيا حسب التداولية.

(واعملوا لآخرتكم) فعل كلامي قوته الإنجازية النصح والإرشاد، والتصريح بلفظ الجلالة (الله) فاعلا للكفاية غرضه بث الثقة والطمأنينة في نفوس المخاطبين الأمر الذي ينتج عنه دفع إلى العمل للآخرة.

(وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم) والنصح المستلزم عن فعل الأمر فعل كلامي ومقصد تداولي سبقت إليه البلاغةُ العربية بقرون، ويتوجه النصح هذه المرة عن طريق الأمر التوجيهي إلى ما هو أعمق من العمل، وهو ما قر في السريرة ولم يطلع عليه أحد، وهو أولى بالإصلاح، فقد يزين الشخص ما يظهر للناس، ويضمر السوء، فصلاح الباطن أولى من صلاح الظاهر، فإذا صلحت السريرة تبعها تلقائيا صلاح العلانية، ولا يجد فيه عناء، أما من ينمق ويزين العلن، فإنه يلاقي شديد العناء لأنه مكلِّفٌ نفسا ضد طبعها، فينبغي أن تبدأ من الجذور حتى تصلح الغصون.

ويلاحظ أنه ربط بينهما عن طريق الأمر وجوابه مقابلا بينهما مع التعبير بالجمع (سرائر) في الجانب الأول، والمفرد (علانية) في الجانب الثاني، فمثل الجمع إيحاء بضرورة الشمول لتصلح السريرة في الأمور كلها، فدخائل النفوس كثيرة.

وشكل التقابل بين (الدنيا) و(الآخرة) وبين (السرائر) و(العلانية) وسيلة من وسائل ربط النص واتساقه "فإن العلاقة النسقية التي تحكم هذه الأزواج في خطابٍ ما هي علاقة التعارض"(١)

ويستخدم حجاج السلطة الدينية بإسناد الفعل (يصلح) إلى لفظ الجلالة (الله) ولمزيد من الثقة في تحقيق الوعد يتبع بوصف (الكريم) إذن لا مجال لأن يشك المخاطب في تحقق الوعد الذي جاء في صورة جواب الأمر إيذانا بفورية حدوثه، فور حدوث الاستقامة الداخلية.

ويشكل جناس الاشتقاق بين الأمر (أصلحوا) وجوابه (يصلح) حجة قوية على مجانسة الجزاء للفعل، فله فائدة حجاجية تضاف إلى فائدته الموسيقية.

ولما كان أحسن الناس عملا من جعل موته نصب عينيه، فإنه يعظهم بالإكثار من ذكره وحسن الاستعداد لما بعده (وأكثروا ذكرَ الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أبًا حيًّا لمعرق في الموت) وكان القوم قد فرغوا من دفن سليمان بن عبد الملك، ورأوا كيف باغته الموت إذ كان غارقا في اللذات والمطاعم والمشارب حتى أصابته تخمة الموت، فالكلام مرتبط بالسياق الحالي. وقوله (وأحسنوا الاستعداد) مبني على افتراض مسبق هو إهمال الناس له.

(١) لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ط١ المركز الثقافي العربي – بيروت، الدار البيضاء ١٩٩١م، ص٢٥.

وتعد سلطة المتكلم عاملا مهما لنجاح الأفعال الكلامية (اعملوا.. وأصلحوا .. وأكثروا .. وأحسنوا) التي قوتها الإنجازية النصح والوعظ والإرشاد، يضاف إلى السلطة صورته التي لا يخالف باطنها ظاهرها.

ويأتي الحجاج بالصورة في قوله (فإنه هادم اللذات) إذ يصور الموت بصورة شخص يمسك بمعول يعمله في اللذات لهدمها، هذه صورة شخصت الموت وأبانت عن قوته من جهة، وجسدت اللذات من جهة أخرى على سبيل الاستعارة المكنية، إنها حجة تقنع المتلقي بالعمل لما بعد الموت حيث تؤكد في نفسه قوته التي يصنع بها النهاية. ففي حجاجية الصورة البلاغة سابقة، والتداولية تتبعها ظلًّا لها.

وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر إذ يقول "اعلمْ أنَّ سبيلك أوّلاً أن تعلم أنْ ليستِ المزيّةُ التي تُثبتُها لهذه الأجناس [الكناية والاستعارة والتمثيل] على الكلام المتروك على ظاهرِه والمبالغةُ التي تدَّعي لها في أنفسِ المعاني التي يقصدُ المتكلمُ إليها بخبرِه ولكنّها في طريق إثباتِه لها وتقريرِه إيّاها. تفسيرُ هذا أنْ ليس المعنى إذا قلنا: إن الكنايَة أبلغُ منَ التَّصريح، أنّك لمّا كنيتَ عن المعنى زدتَ في ذاته بل المعنى أنّك زدتَ في إثباتهِ فجعلتَه أبلغَ وآكد وأشدَّ. فليستِ المزيّةُ في قولهم: (جمٌّ الرماد) أنّهُ دلَّ على قِرًى أكثرَ بل المعنى أنك أثبتَّ له القِرى الكثيرَ من وجهٍ هو أبلغُ، وأوجبْتَهُ إيجاباً هو أشدُّ وادَّعيته دعْوى أنتَ بها أنطقُ وبصحَّتها أوثق. وكذلك ليست المزيّةُ التي تراها لقولك: " رأيتُ أسداً " على قولك: رأيتُ رجلاً لا يتميَّزُ منَ الأسد في شجاعته وجُرأته، أنّك قد أفدتَ بالأول زيادةً في مُساواته الأسدَ بل أنَّك أفدتَ تأكيداً وتشديداً وقوّة في إثباتك له هذه المساواةَ وفي تقريرك لها. فليس تأثيرُ الاستعارةِ إذاً في ذاتِ المعنى وحقيقتِه بل في إيجابِهِ والحكمِ به، وهكذا قياسُ التّمثيل ترى المزيَّةَ أبداً في ذلك تقعُ في طريق إثباتِ

المعنى دون المعنى نفسه. فإذا سمعْتَهم يقولون: إنَّ من شأنِ هــذه الأجنــاسِ أن تُكسِبَ المعاني نُبلاً وفضلاً وتوجِبَ لها شَرَفاً وأن تفخمَها في نفــوسِ السّــامعين وترفَعَ أقدارَها عند المُخاطَبينَ فإنّهم لا يُريدون الشَّجاعةَ والقِرى وأشباهَ ذلك من مَعاني الكلِمِ المُفردةِ وإنّما يَعْنون إثباتَ معاني هذه الكلِمِ لمَنْ تثبتُ له ويُخبَر بهــا عنه.." [1] وإثبات المعاني وتقريرها وإيجابها مآله إذعان السامعة الذي هو مبتغَى الحجاج.

وانظر إلى تعريفه (اللذات) بــ(أل) الجنسية ليستوعبها جميعا، ولا يبقــي على شيء من جنسها.

وتراه يوظف التأكيد كآلية لغوية من آليات الحجاج في قولــه (إن مــن لا يذكر ... لمعرق في الموت) على الرغم من أن الناس جميعا لا ينكرون المــوت، لكنهم نزلوا منزلة المنكرين؛ لما بدا عليهم من علامات الإنكار، حيث الإقبال على الدنيا ونعيمها، والغفلة عن الاستعداد للموت وما بعده.

إن البلاغة قد سبقت التداولية إلى التأكيد ومقامــات اســتعماله الحقيقيــة والحكمية، وقدرته على إقناع المتردد والمنكر، ففي هذا الصدد لم تأتِ التداوليــة بجديد، حيث يعد التأكيد من تقريريات سيرل.

وقد عبر بالاسم الموصول (من) ليفيد العمــوم، فــالحكم عــام للبشــرية جمعاء، ثم أتى بصلته فعلا مضارعا؛ ليفيد التجدد الاستمراري، إذ عدم ذكــر أب حي بين الحي وآدم أمر متجدد مستمر.

(وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عَزَّ وَجَلَّ، ولا في نبيها صَــلَّى اللَّــهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود شاكر، ط٣ المدني –جدة والقــاهرة ١٩٩٢م، ص ٧١.

أحدًا باطلا، ولا أمنع أحدًا حقًّا، إني لست بخازن، ولكني أضع حيث أمرت) يبين في هذه الفقرة السبب الذي جر على الأمة داء الاختلاف والتفرق، وكان مدخل الفتن التي ذاقت ويلاتها من صراع دموي وتحزب وتفرق للكلمة وشق لوحدة الصف، إنه الدينار والدرهم.

فالأمة لا خلاف بينها في ربها المعبود ولا نبيها المتبع، ولا كتابها المهتدى به، فما أهون وأحقر ما اختلفت فيه! الدينار والدرهم طلبا للدنيا وتكالبا عليها؛ لذا يبين للمخاطبين سياسته في العطاء (وإني والله لا أعطي أحدًا باطلا، ولا أمنع أحدًا حقًّا) إنه يعرف دخائل النفوس، وما يكون من الناس من إقبال على الحكام طمعا في عطاياهم فأراد أن يسد هذا الباب على المخاطبين ويبدأهم به من أول الأمر، فبنى خطابه على ما يعتمل في الصدور؛ ليطابق حال المخاطب، إذن كان للمخاطبين دور في تشكيل الخطاب، هذا ما تقول به التداولية، وقد قالته البلاغة العربية منذ القدم، قال الجاحظ "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم" [1] .

وقد أكد كلامه بـ(إن) و(القسم) وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ ليقنع المخاطب بصرامته وحزمه في هذا الشأن، فهو لن يعطي إلا من يستحق، لن يعطي باطلا ولن يمنع حقا، والتأكيد آلية من آليات الحجاج، هدفها التأثير والإقناع.

والتقابل بين الجملتين جاء ليغني السامع عن أن يسأل: ماذا إذا كان لأحد حق؟ فجاءت الجملة الثانية موصولة بالأولى؛ لتتضح الصورة أمام المخاطب كاملة بطرفيها (لا إعطاء بالباطل ولا منع لحق) وقد شكل التقابل آلية بلاغية للحجاج، تقنع المخاطب بإقامة العدل على المستويين: الإعطاء والمنع، فجاءت

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ، ٩٥/١

التداولية مترتبة على البلاغة في هذا الموضع، وهكذا "يقوم البديع ...بالمساهمة في بناء نظرية للحجاج ، إذ تضطلع كل وسيلة بوظيفة حجاجية ، وكل وسائله تؤدي وظيفة تقوية المعنى وتوضيحه ، وحاجة الحجاج للبديع أن المعنى المقنع يحتاج لشيء من الجمال والتوشية ؛ليقع موقعا حسنا على نفسية المتلقي ....،فالبديع يعين على تأدية الكلام بشيء من الجمال ؛ ليكون مقنعا من جهتين : جهة القوة ، وجهة المتعة واللذة " [١] إذن التقابل البديعي جاء تلبية لحال المخاطب، وأدَّى دورًا في الحجاج، فهل للتداولية أن تستغني عن البلاغة؟

ويقرر غرضه ببيان أن الأمر ليس له، فيقول (إني لست بخازن، ولكني أضع حيث أمرت) أي ليس لي مطلق التصرف، فأعطي وأمنع برغبتي، إنما أنا مأمور مؤتمن على المال، فلا أضعه إلا حيث أمرني الله تعالى، والجملة مؤكدة ب(إن) و(الباء الزائدة) لتقطع أطماع الطامعين، وتقنع بأن لا عطاء إلا عن استحقاق.

وفعل الوعد (أضع) من الأفعال الكلامية الالتزامية أو من "أسرة الوعديات من الأسر الخمس التي صنفها (أوستين) للأعمال التي تنجز بواسطة اللغة" [٢]؛ إذ يلزم نفسه عن قصد وإخلاص بوضع المال موضعه الذي يرضي الله تعالى، ويمكن عده من الإعلانيات؛ إذ يعلن عن طريق الفعل المضارع المسند إلى ضمير المتكلم إنهاء توزيع المال اعتباطا دون وجه حق، وبدء سياسة جديدة تتوخى العدل.

---

(١) خطاب الحجاج والتداولية –دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عباس حشاني ،ط١ عالم الكتب الحديث –إربد٢٠١٤، ص٣٠٥.

(٢) نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، ملاوي صلاح الدين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر –بسكرة، العدد الرابع جانفي ٢٠٠٩، ص٤،٥.

ويلاحظ أنه يحاج بالسلطة العليا في قوله (أمرت) فمعلوم أن الآمر الله –وإن بني الفعل للمفعول– أي لا لوم علي ولا اعتراض؛ لأني أنفذ أمر الله تعالى.

فهنا جاء الحجاج ثمرة آلية بلاغية هي حذف الفاعل (المسند إليه) وإقامة المفعول مقامه.

(أيها الناس: إنه قد كان قبلي ولاة تجترون مودتهم، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم) ينادي الناس مرة أخرى، والنداء إنجاز لفعل الإقبال ودلالة على أهمية الأمر الذي يناديهم لأجله؛ إذ يلفت إلى ضرورة التنبه لمبدأ عال في معاملة الحاكم، فإن خوف الناس من بطش الحاكم جعلهم يظهرون مودتهم له وطاعته مهما كان عليه أمره، فهو هنا يبين لهم أن الأمر معه مختلف، لا يسري عليه في هذا الشأن ما سرى مع من كان قبله من الحكام، فهو لا يكلف الناس طاعته إلا في طاعة الله، أما إذا عصى فلا طاعة له عليهم.

وإحالته على شخصيات الولاة قبله يضع الأمر في عين المقارنة بين الماضي والحاضر؛ ليقف المخاطب على حسن صنيعه، وسلامة منهجه، فينعكس هذا على الرعية في سلوكهم، وقد كان بالفعل، فاصطبغ الناس بصبغته؛ فقد "كان الناس يلتقون في زمن الوليد فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع، فلما ولي سليمان –وكان صاحب زواج ونهم– جعل الناس يتساءلون عن الجواري والطعام، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون يقول الرجل للرجل: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وما تصوم من الشهر؟" [1]

(١) الخليفة الزاهد (عمر بن عبد العزيز)، عبد العزيز سيد الأهل، ص٦.

وانظر إلى انتقائه الفعل في (تجترون مودتهم) وصياغته على (افتعل) كيف دل على أنها مودة مجتلبة متكلف لها، في جذبها مشقة وعناء بغية دفع الظلم.

والجملة تصف النكرة (ولاة) بغرض التخصيص، وغايتها التداولية الإيضاح، وهي من الأفعال الكلامية التقريرية حسب سيرل، [1] ولولا النظم أي تعليق تلك الجملة بالنكرة قبلها لما تحققت تلك الغاية التداولية، أي أنها ظل للنظم.

والتأكيد بـ(إن) و(ألا) والتكرار في مادتي (الطاعة) و(المعصية) وجعلهما في بؤرة الاهتمام، وتسليط الضوء عليهما، والتقابل بينهما، وذكر الخاص بعد العام، فبعد أن قال (من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له) أتى بما يخصه (أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم) هذا كله من الآليات الحجاجية التي تدفع المخاطبين إلى الاقتناع والتسليم بأن قصد المتكلم ألا يطلب سلطة لنفسه، ولا تمييزا له على الناس، وأنه ما قبل الخلافة إلا نزولا على رغبتهم، ورجاء تحقيق العدل.

ويلاحظ أنه عبر بـ(إذا) في (فإذا عصيت) لتفيد أنه لا طاعة له عليهم إذا تيقنوا معصيته، فلا يعصوه بمجرد الظن، أو لأن أحدا أوعز إليهم بأنه قد عصى، بل لا بد من التثبت، وقد كان بالفعل أن قد أرجف الناس بأنه دفن سليمان حيا [2] فكأنه يلمح إليه وإلى نحوه.

وقوله (أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم) يؤذن بانتهاء الخطبة إذ يختمها بالاستغفار بدلالته الاستمرارية المستنبطة من توظيف الفعل المضارع، ويثني على الله بما هو أهله من وصف العظمة، ويتضامن مع المخاطبين إذ يضمهم إليه في الاستغفار، وهذا ما يعرف بالاستراتيجية

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ص ١٨٥.

(٢) الخليفة الزاهد، ص٩٠.

التضامنية[1] فهو لا يستغفر لنفسه وحسب، وفي هذا دلالة على حرصه على ما ينفعهم، مما يجعلهم يسلمون له مقاليد الطاعة والإذعان.

وهكذا يؤدي استغفاره لهم عمل تأثير بالقول هو إيجاد الألفة بين المتكلم والمخاطب.

وقد غلبت على الجزء الأول من نص الخطبة الإشاريات الشخصية الخاصة بالمرسِل؛ حيث ضمائر المتكلم الياء (إني [مكررة]، ومني، وبيعتي) والتاء في (ابتليت، وخلعت) على حين انحسر ما يشير إلى المخاطبين في الكاف في (أعناقكم، وأنفسكم) وواو الجماعة في (اختاروا) لأن الأمر منوط به وهو يريد أن يبرأ منه، ويخلِّص نفسه من تبعاته، فكان طبعيا أن يكثر ما يشير إليه.

ولما أصر الناس على اختياره، وتوجه إليهم بالوعظ برزت إشاريات المخاطبين، وغلبت على بقية النص متراوحة بين (كاف الخطاب) و(واو الجماعة) لتشمل من حضر وكل فرد من رعيته في سائر أقطار المسلمين، فحضور ضمائرهم في النص أدعى لأن يضع كل شخص في اعتباره أنه مقصود بالموعظة، وبالتالي يؤثر فيه الخطاب.

أما الإشاريات المكانية فتمثلت في قوله (بين يديه) الذي يجسد معنى الطاعة والتهيؤ لحمايته.

و(المسجد) إشارية مكانية إلى الموضع الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية؛ ليكون ما يُلقي معلنا للجميع.

وقوله (حيث أمرت) مكانية تشير إلى عدم مجاوزته المكان الذي يستحق أن يوضع فيه المال بأمر من الله تعالى.

---

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، الشهري، ص ٢٥٦ وما بعدها.

والزمانية هي (بينه وبين آدم) حيث يشير إلى امتداد الزمن، وقوله (ما أطعت) تشير إلى قصْر طاعتهم إياه على مدة دوام طاعته لله.

هذا، وقد قدم الرجل نفسه منذ البداية زاهدا في الخلافة، حيث رفض أن يركب مراكبها بعد خروجه من قبر سليمان لما فرغ من دفنه، وركب بغلته، وأبى مسير صاحب الشرطة بين يديه، وقال : إنما أنا رجل من المسلمين، ثم أكد صورة شخصيته من خلال خطابه، إذ خلع بيعته من أعناقهم، فلما أبوا إلا اختياره وضع نهجه، وزاد في إيضاح صورته، ذلك الرجل التقي الذي يوصي بتقوى الله، ويحث على العمل للآخرة، والإكثار من ذكر الموت، وينعى على الناس اختلافهم في الدينار والدرهم، ويسن سنة جديدة في العطاء، ويعد ألا يضع المال إلا حيث أمر الله، ويقرر أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأول من يطبق عليه ذلك نفسه، ويحرص على أن ينهي خطابه بما يؤلف بينه وبين مخاطبيه وهو الاستغفار لهم.

وعلى أثر تلك الخطبة استقرت له الخلافة بعد أن كان بنو عبد الملك ينكرونها عليه في البداية، وكادت الصعقة تأخذهم حين سمعوا اسمه في عهد سليمان المطوي الذي قرأه عليهم رجاء بن حيوة،١ لكنه استطاع إقناعهم بقوة بيانه، فقد أثمرت خطبته إذعانهم.

(١) ينظر: الخليفة الزاهد، ص ٨٨.

الخطبة الرابعة: مُنفِّذ لله

وصعد المنبر: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

"أما بعد، أيها الناس، إنه ليس بعد نبيكم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا إني لستُ بقاضٍ، لكني منفذ لله، ولست بمبتدع، ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عَزَّ وَجَلَّ، ألا إني لست بخيركم، وإنما أنا رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا، يأيها الناس: إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم". (١)

يعظ الناس ليحملهم على الاستقامة، فيقدم في صدر خطبته ما يدل على أنه لم يأتِ بجديد، لم يبتدع شيئا، وإنما يحثهم على فعل الحلال الذي أحله الله على لسان نبيه، وتجنب الحرام الذي حرم على لسان نبيه، أي أنه لا يزيد شيئا على هذا، وإنما يذكرهم به.

لن يأتي نبي لهدايتكم، ولن ينزل إليكم كتاب آخر للعمل بما فيه أي عليكم أن تواظبوا على متابعة نبيكم واستمداد أحكامكم من كتابكم، فليس بعدهما شيء، فماذا تنتظرون للعمل؟

والتقابل بين جملتي (فما أحل ....، وما حرم...) واضح غرضه الذي هو شمول الأبدية والديمومة لحل الحلال وحرمة الحرام جميعا.

إن الوصل بين الجملتين يعد ملمحا تداوليا روعي فيه حال المخاطب لاقتران النقيضين (الحلال والحرام) في ذهنه، فلما قال (فما أحل ..) ورد في

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٦٩، وص١٩٨، ولابن عبد الحكم ص٤٠ ومروج الذهب ٢: ١٦٨، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٣، ٢/٢٠٤.

خاطره ما حرم، فوصل المرسل الجملة الثانية (وما حرم ..) بها لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، ولوجود جامع التضاد بينهما، وينتج عنها استلزام حواري مؤداه: إني لا أمس حراما ولا حلالا، أي لن أبتدع شيئا، الأمر الذي أكده بالتصريح بعده بقوله (ولكني منفذ لله).

وقد كان من قبله من بني أمية قد استحلوا الدماء، واستباحوا الحرمات، ونكلوا بآل البيت، فهو ينفي عن نفسه أن يكون على نهجهم، فالحلال ما أحل الله، والحرام ما حرم الله، ولن يتبع أحدا من أسلافه الأمويين، فإتيانه بالجملتين متصل بالسياق الاستعمالي تمام الاتصال، فربما ظن المخاطبون أنه يمكن أن ينهج نهج عشيرته الأموية، وقد رأى الناس وعاينوا ما كان منهم، في الجملتين إذن ملحظ تداولي.

ويلاحظ أنه وضع الاسم (الله) موضع الضمير في الجملة الثانية؛ لتربية المهابة وإدخال الروع في القلوب فلا يقدم أحد على ارتكاب المحرَّم خشية المحرِّم -سبحانه- ولم يكتفِ بما ذكر في الجملة الأولى من بقية المفردات، بل أعاد ذكرها بالتفصيل؛ لأن الموطن موطن بيان وتأكيد.

وفي قوله (ألا إني لست بقاضٍ، لكني منفذ لله، ولست بمبتدع، ولكني متبع) يفصل الجملة عن سابقتها؛ لأنها مؤكدة لها تأكيدا معنويا، أي لست بقاض بحل ولا حرمة وإنما أنفذ ما قضى الله -تعالى- به، ولما كانت هذه الجملة تقتضي مزيدا من التنبيه بدأها بـ(ألا) الاستفتاحية التي تقتضي التحقيق والدلالة على أن ما يأتي بعدها مهم، فهذه الجملة هي بؤرة الاهتمام في الخطاب، وعليها مدار الخطبة.

نفى عن نفسه أن يكون قاضيا بحل أو حرمة، وأثبت كونه منفذا لله، ونفى الابتداع وأثبت الاتباع.

ويمكن القول إن قوله (فما أحل الله ...، وما حرم) نتيجة مقدمة لهاتيك الجمل .

وفي هذا الموضع يرسم النص شخصية المحاج حيث تظهر ضمائر المتكلم المتصلة (التاء) في (لست) و(الياء) في (لكني) يرسمه شخصا متواضعا دينا غير جبار ولا متسلط متضامنا مع الناس (إنما أنا رجل منكم) نافيا عن نفسه الخيرية (لست بخيركم)- والجملة مبنية على افتراض مسبق هو اعتقاد الناس أفضلية الخليفة وتقديمه على الرعية- مثيرا الشفقة عليه في تحمله المسؤولية جالبا لعون المخاطب له عليها (غير أن الله جعلني أثقلكم حملا) وفي الجملة افتراض مسبق هو كون الحكم حملا ثقيلا، وهذه هي نظرة العاقل إليه، فالحكم مسؤولية ثقيلة ملقاة على عاتقه، فهو يعتبر أن هذا شيء مسلم به لدى المخاطب غير أنه أثقل الأحمال على الإطلاق، وهنا يستخدم (أفعل) التفضيل كآلية لغوية للحجاج.

وقد استعمل بنية الطباق بين (مبتدع) و(متبع) وبين (يطاع) و(معصية) ليتضح النقيض بنقيضه فتبين حلاوة الاتباع والطاعة، وقبح الابتداع والمعصية.

كما استعمل القصر بـ(إنما) في قوله (وإنما أنا رجل منكم) أي أنه ينطلق مما هو معلوم لهم، وفيه قياس مضمر، فبما أني واحد منكم فلست بأفضل منكم، ولما قال (غير أن) أوهم السامع أنه سيأتي بعده بشيء له فيه مزية عليهم، فيفاجأ السامع بغير ما يترقب وهو أنه أثقل حملا، وهذه ليست مزية وإنما عبء ومشقة.

وهذا أسلوب يشبه تأكيد الذم بما يشبه المدح يمكن تسميته تأكيد التواضع بما يشبه الفخر.

وهنا يسند الفعل إلى الله-تعالى- فيحاج بذي السلطان الأعظم -سبحانه- أي أن الأمر لم يكن اختيارا منه، وإنما تكليف ممن لا يرد له أمر، ولا يُعترَض له على فعل.

وينادي الناس مرة أخرى (يا أيها الناس) فيثبت هذه المرة (يا) النداء، لأن المنبه عليه هو أركان الدين التي لا قيام له بدونها، ليس شيء أولى بالتنبيه منها إنه يحثهم على أداء الفرائض، فيحتج بـ(أفعل) التفضيل كآلية لغوية للحجاج، ويضيف إليها التأكيد (إن أفضل العبادة أداء الفرائض) ويكمن دور (أفعل التفضيل) الحجاجي في أنه يمكن من ترتيب الأشياء ترتيبا معينا ليضع المفضَّل في أعلى درجة[1]، والفعل الكلامي التقريري هنا يحمل الناس على المحافظة على أداء الفرائض واجتناب المحارم فهو لا يرمي بالعبارة إلى الاقتناع فحسب، وإنما يتجاوزه إلى السلوك.

ثم يختم كعادته باستراتيجية تضامنية للخطاب (أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) فهو حريص عليهم لا يستأثر نفسه بالاستغفار، وإنما يضمهم إليه، وفي هذا ما يجعل المخاطبين يمتثلون أمره، إذ يبدو مصلحا -وهو كذلك- لا يريد لهم إلا الخير والفلاح.

وقد غلبت الإشاريات الشخصية إلى المرسِل، حيث كثرت ضمائر المتكلم؛ لأنه يرسم لهم نهجه، فهو يتبع ما جاء في الكتاب والسنة، لن يبتدع شيئا من عنده، لا يرى لنفسه أفضلية عليهم، ولفظ (بعد) في قوله (بعد نبيكم، وبعد الكتاب) وقوله (إلى يوم القيامة) إشاريات زمانية إلى استحالة أن يحرم حلالا أو يحل حراما.

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، ص ٥٢٨.

الخطبة الخامسة: التذكير بالبعث

وخطب فقال:

"أيها الناس، إنكم ميتون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم. يا أيها الناس، إنه من يقدر له رزق برأس جبل، أو بحضيض أرض يأته، فأجملوا في الطلب" (١)

يذكِّر الناس بالبعث بعد الموت؛ إذ رأى غفلتهم وإقبالهم على الدنيا، لذا نراه حذف (يا) النداء ليصل إلى أسماعهم سريعا علَّه ينقذ شيئا؛ ليرعووا ويعودوا إلى صوابهم ويندموا على تفريطهم.

وقد ألقى الأخبار الثلاثة مؤكدة بـ(إن) وجعل الجمل اسمية تنزيلا للعالم بمضمون الخبر المسلِّم به منزلة المنكر، لظهور علامات الإنكار عليه من الانشغال بالدنيا وملذاتها، والتقصير في شأن الآخرة.

واستعمال (ثم) أبلغ في الإنذار والتحذير من العطف بغيرها، والتأكيد من الأفعال الكلامية التقريرية، وينشأ عن الجمل استلزام حواري مؤداه: انتبهوا، تيقظوا من غفلتكم، أقبلوا على آخرتكم واعملوا لها؛ فالعمل سبيل النجاة.

وتمثل الجمل حججا قد أحسن ترتيبها على السلم الحجاجي صعودا إلى أقواها (إنكم محاسبون) هكذا:

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، (د.ط) دار المعارف –مصر (د.ت) ص ٢٢٨،٢٢٩ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٣٤، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٤، ٢/٢٠٥.

أجملوا في الطلب

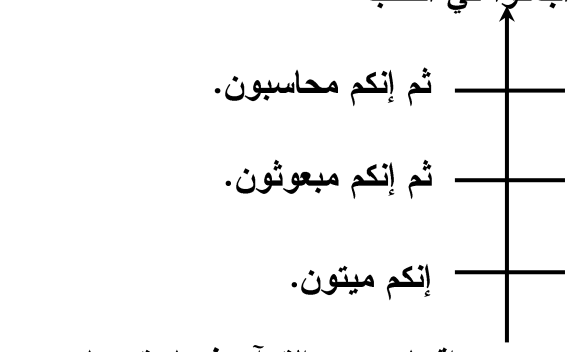

واقتباسه من القرآن فيها يقويها ويهبها الإقناع.

ويُتبِع التأكيد تأكيدا بالقسم في قوله (فلعمري.. هلكتم) وتكثر هنا المؤكدات بغية إقناع المخاطبين (القسم، واللام الموطئة له، واللام مع قد) ويقابل بين الصدق والكذب ويرتب عليهما حكمًا يُفهم منه أنهم غير محسنين على أية حال، فإن كانوا صادقين فهم موسومون بالتقصير، وإن كانوا كاذبين فقد لحقهم الهلاك، ويُفهم منه حثهم على المبادرة إلى العمل لينتفي التقصير، وإلى التوبة ليدفعوا عن أنفسهم الهلاك، فهذا ما تستلزمه العبارتان.

وقد كان الناس يتهافتون على الخلفاء يطلبون العطاء، وكان عمر لا يضع المال إلا في موضعه وحيث ينبغي له؛ لذا يحثهم على الإجمال في الطلب (يا أيها ..... الطلب) يكرر النداء لمزيد من التنبيه، ويستعمل التأكيد بـ(إن) مع أسلوب الشرط الدال على تحقق الجزاء متى تحقق الشرط، أي حتما سيأتيك رزقك قل أو كثر، قرب أو بعد، بأعلى مكان كان أو بأسفل مكان، فلا داعي للإلحاح في الطلب، والجملة مبنية على افتراض مسبق هو طلب الناس العطاء والإلحاح عليه.

ويعبر بالنكرة (رزق) ليفيد العموم، ويكني عن بعده وصعوبة الوصول إليه، وأنه على الرغم من ذلك يأتي، يكني بقوله (برأس جبل أو بحضيض أرض) أي مهما بلغ في البعد علوا أو سفلا، وهنا يستعمل حجاجية الصورة البيانية؛

ليمتع ويقنع أي يجمع بين الوظيفة الجمالية والوظيفة الحجاجية. والاستلزام الحواري هنا هو إتيان الرزق مهما بعد وصعب مناله، وهو المعنى الكنائي نفسه، إذن الاستلزام الحواري ليس جديدا، وتعد الجملة من حجاج القياس على الأَوْلى، فإذا كان ما قسم لكم من رزق في رأس جبل أو حضيض أرض آتيا، فإن ما لكم من رزق فيما بين يدي آتيكم لا محالة، فلا داعي للإلحاح في الطلب.

وقد شغلت إشاريات المخاطبين الشخصية أكبر مساحة من نص الخطبة، حيث كاف الخطاب في (إنكم، المكررة ثلاث مرات)، والتاءفي (كنتم[مرتين]، وقصرتم، وهلكتم) وواو الجماعة في (أجملوا)، حتى تقرع تلك الضمائر الأسماع فيتنبه الناس من غفلتهم، (ورأس الجبل، وحضيض الأرض) إشاريتان مكانيتان أكدتا حتمية إتيان الرزق مهما شق الحصول عليه.

ويفرع على الجملة الشرطية قوله (فأجملوا في الطلب) وهذا تماسك دلالي للنص، والأمر غرضه النصح والإرشاد، وهو يمثل قوته الإنجازية باعتباره فعلا كلاميا توجيهيا.

الخطبة السادسة: التحذير من الدنيا

وخطب فقال:

"إن الدنيا ليست بدار قرار، دارٌ كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظعن، فكم عامر موثق عما قليل يخرب، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة، بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

إنما الدنيا كفيء ظلال قَلَصَ[(١)] فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا منافس، وبها قرير عين، إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودياره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه[(٢)]، إن الدنيا لا تسر بقدْرِ ما تضر، إنها تسر قليلا، وتجرّ حزنًا طويلا".[(٣)]

يحذر من الدنيا والاغترار بها، ويحتج بفنائها ورحيل أهلها، فقد فتن بنو أمية بالدنيا، واستكثروا من نعيمها وانشغلوا بها، فهو يحارب ذاك الداء الذي ساد قبله، وقد أراد أن يعلم الناس أن يكتفوا من الدنيا بما يكون زادًا للآخرة، وألا يركنوا إليها.

وقد افتتح بخبر مؤكد بأكثر من مؤكد تنزيلا للمخاطبين منزلة من ينكر مضمون الخبر؛ لما بدا عليهم من الانغماس في ملذات الدنيا وشهواتها، ويعد التأكيد من الأفعال الكلامية التقريرية، حيث إن فعل القول هو نفي القرار عن الدنيا

---

(١) قَلَصَ الظلُّ يَقْلِصُ عني قُلوصاً انقبض وانضمّ وانْزَوَى (لسان العرب، مادة: قلص).

(٢) المَغْنى: واحد المَغاني، وهي المواضع التي كان بها أهلوها (الصحاح في اللغة، مادة: غني)

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٥٧ وص٢٣٢، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٥، ٢/٢٠٥.

(ملفوظ الخبر) ، والقوة المتضمنة في القول هي التزهيد فيها، أما الفعل التأثيري المأمول تحصيله فهو نقل النفس من الانشغال بها إلى الانشغال بالآخرة.

ثم يستأنف (دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظعن) فيأتي بجملتين مقررتين لمعنى الجملة الأولى مستعملا الحذف كرابط دلالي، أي: هي دار، ليست هي فقط الفانية، بل أهلها كذلك، ويلاحظ أنه استعار الظعن للموت والفناء؛ ليلقي في روع المتلقي معنى الانتقال والأمل في حياة باقية لا يهددها الرحيل ولا الفناء، كما أن الظعن أخف وطأة على المخاطب من الموت والفناء.

وجملة (كتب) صفة لنكرة فهي من تقريريات (سيرل) حيث مهمتها إيضاح حال تلك الدار.

وللتشبيه دوره بوصفه وسيلة بلاغية للحجاج؛ إذ يقنع السامع أن الدنيا – على سعتها– ما هي إلا دار يرحل عنها صاحبها عما قليل، فيهون عليه عدم الاكتراث بها إلا بقدر كونها بلغة إلى الآخرة.

ويلاحظ التوازي الصوتي في تكرار صوت (الراء) في الجملتين الأولى والثانية وهو يعكس المعنى المقصود من عدم الاستقرار والقلق المنوط بالحياة الدنيا بما له من صفة التردد، ومنه تكرار الفعل (كتب) الذي يفيد معنى الفرض والحتمية، ففناؤها كائن لا محالة، ورحيل أهلها لا مفر منه، ولهذا تأثير على المخاطب يفوق كثيرا أن يقال: الدنيا فانية، وأهلها راحلون.

ثم يقيم الدليل (فكم عامر... وكم مقيم...) مستعملا ثنائية التضاد ليدل على التبدل والتحول، فالعامر مآله إلى الخراب، والمقيم مآله إلى السفر.

وتكرار (عما قليل) يعد من التوازي الصوتي الذي له دور في الإقناع بسرعة التحول، بما فيه من الإلحاح على الفكرة، فلن يطول المكث، وتبدل الأحوال سنة كونية.

وقد استعمل الحذف كآلية لغوية للحجاج؛ إذ التقدير: كم منزل عامر موثق، وكم شخص مقيم مغتبط، ثم جاء بمقابل عامر (يخرب) ومقابل مقيم (يظعن) ليستتبع المخاطبون مقابلي (موثق، ومغتبط) فيكونا الحزن والتشرد، فحين يملأ المخاطب هذا الفراغ بنفسه يكون أكثر اقتناعا به من أن يُملى عليه، إنه يريد أن يلجئه إلى ما يريد من الزهد في الدنيا الفانية والعمل للباقية.

ويعد التقابل من التوازي المعجمي الذي يؤدي فائدة مزدوجة: حيث إنتاج الدلالة من ناحية، وتقسيم الكلام إلى وحدات متناظرة من ناحية أخرى، ويؤدي بعدا تداوليا، حيث يقنع المخاطب بذلك التحول للدنيا إلى الخراب والتشرد والظعن والحزن، فيختار الباقية.

وفي الجملتين توازٍ نحوي حيث بنيتا بناء واحدا يكون له تأثيره حين يطرق السمع؛ ليفيد اتحاد التركيب فيهما المبادرة إلى اتحاد المآلين: مآل الديار، ومآل الأشخاص.

ويحنو عليهم بنصحه فيقول (فأحسنوا -رحمكم الله- منها الرحلة) والأمر هنا من الأفعال الكلامية التي تحمل قوة إنجازية هي النصح والإرشاد، تدفع إلى الامتثال، وقد ضمن الجملة الاستمالة بالدعاء (رحمكم الله) معترضا بين الفعل ومتعلقه؛ ليؤكد للمخاطبين تضامنه معهم وحرصه عليهم، فالاعتراض له وظيفة تواصلية أي تداولية، حيث التأثير في المتلقي واستدراجه إلى الاقتناع بلطف الاستمالة، وقد فصلت البلاغة العربية -قبل التداولية- أغراض الاعتراض ومقاصده. (١)

(١) ينظر: بغية الإيضاح ٣٥٩/٢.

ويبين عما يرتحلون به بقوله (بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) أي انتقوا أجود ما تنتقلون به، وأفضل ما لديكم اتخذوه زادا للعالم الآخر.

يستخدم (أفعل) التفضيل آلية لغوية للإقناع بهول اليوم الآخر وحاجته إلى الاستعداد بأفضل ما يمكن الاستعداد به، ويضيفه إلى الاسم الموصول (ما) الذي يفيد العموم، أي لتحشدوا كل ما يحضركم ولتنتقوا أجوده، وفي هذا التعبير تجسيد للأعمال وعرض لها في صورة مادية محسوسة على سبيل الاستعارة المكنية. وقد استقر في الأذهان ما للحس من تأكد في الإدراك، إذ النفس للحس أقرب، مما جعل عرضه الأعمال في صورته أكثر تأثيرا في نفوس المخاطبين.

ثم يحتج بالشاهد إذ يقتبس من القرآن الكريم في قوله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) بما له من سلطة دينية عليا، وما يمثله من خلفية معرفية مشتركة بينه وبين جمهوره المخاطب، فهو ينطلق من مبدأ مسلم به لديهم ويحتج به على ما يطلب منهم من إحسان الرحلة من الدنيا بأفضل ما يستطيعون من أعمال.

هنا وظفت بلاغة الاقتباس لغرض تداولي، هو استمالة السامعين، وجعلهم يذعنون له، ودفعهم إلى امتثال الأمر والعمل به، وعليه جاءت التداولية هنا ظلًّا للبلاغة.

وفي قوله (إنما الدنيا كفيء ظلال قَلَصَ فذهب) يشبه الدنيا بفيء الظلال دلالة على زوالها وسرعة ذهابها وفنائها؛ فإن ما يُنعَم به من ظل فيه سرعان ما ينقبض ويذهب، واستخدم القصر بـ(إنما) فحصر الدنيا في كونها فيء ظلال، وكأن لا صفة لها ولا حقيقة إلا هذه، نافيا عنها كل ما عدا كونها كالفيء، وقد عطف الفعل (ذهب) بالفاء المفيدة للترتيب والتعقيب دلالة على سرعة ذهاب الفيء إثر انقباضه دون ما مهلة، والاستلزام الحواري للصورة التشبيهية هو

سرعة زوال الدنيا وانحسارها كما ينحسر الظل ويزول، وما كان ليوجد ذلك الاستلزام لولا البلاغة المتمثلة هنا في التشبيه.

والتشبيه من الآليات البلاغية التي توظف للإقناع بما له من وظيفة حجاجية، وأخرى انفعالية نفسية، وقد سبق الإمامُ عبد القاهر التداوليين إلى حجاجية التشبيه بقوله "والتشبيه قياس والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان" (١)

وقد نزل كون الدنيا كفيء ظلال منزلة ما هو معلوم لكل أحد باستخدامه (إنما) وجاءت الجملة معللة لما قبلها، وهذا من أحسن مواقع (إنما)، وكأنه قيل: لماذا نستعد للرحلة؟ لذا جاءت الجملة مفصولة عما قبلها، وفي الفصل مراعاة لما قد يدور في خلد السامع من أسئلة وإغناء له عن أن يسأل، فهو عنصر من عناصر السياق يتدخل في تشكيل الخطاب، واعتبار حال السامع من مقتضيات التداولية، وقد سبقت البلاغة العربية إلى الاعتداد بالسامع وعدته من عناصر المقام التي تدعو المتكلم إلى اعتبار خصوصية ما في كلامه ليطابق حاله.(٢) وقد كان للبلاغيين العرب قصب السبق في ربط المقال بالمقام، يقول تمام حسان "كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة – تقريبا– عن زمانهم؛ لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني. تحقيق/محمود شاكر، ط١ المدني، القاهرة، جدة ١٩٩١م. ص ٢٠.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح ١/ ٤٤.

تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر دراسة اللغة" (١)

وتقريرًا لسرعة زوال الدنيا يتبع بقوله (بينا ابن آدم في الدنيا منافس، وبها قرير عين، إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره وديباره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه) بينما الإنسان ينافس في الدنيا فرحا بها يفاجئه الموت فيُنهي كل ما كان، وهنا يضع الظاهر (الدنيا) في موضع الضمير لمزيد من التحذير منها ومن الاغترار بها والانغماس فيها، وتقريرا وتمكينا للمعنى في أذهان السامعين.

وهنا يلتفت من ضمير الخطاب فيما سبق (يحضركم) إلى التعبير بالاسم الظاهر (ابن آدم) الذي يعدل ضمير الغائب تحاشيا لمواجهة المخاطب بما يكره، وينفر منه من أمر الموت وتلطفا، وهنا يلعب السامع دورا مهما جعل المتكلم يعدل عن ضمير المخاطب إلى الاسم الظاهر.

إذن لاحظ السياق الاستعمالي إذ هو أمام مخاطب يهوله ويفزعه الموت، فعدل عن خطابه مباشرة إلى الحديث عن غائب، وتتابعت بعد الاسم الظاهر ضمائر الغائب في (دعاه، وقدره، ورماه، وحتفه، ... إلخ)

وتقديم الجار والمجرور(في الدنيا ، بها) يشكل دلالة الحرص عليها وشدة التعلق بها، مما يزيد من هول المفاجأة في سلبها، وهو ما يأتي بعد (إذ) في قوله (إذ دعاه...) والإجابة حتمية إذ الداعي لا ترد دعوته؛ لذا عرف المسند إليه (الله) بالعلمية إيقاعا للخشية والرهبة والجلال في نفس السامع، فليس أمامه إلا الإذعان لدعوة من يقول (كن) فيكون.

(١) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ط ٥ عالم الكتب، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ٣٣٧.

وهذا حجاج بذي السلطان الأعظم –سبحانه– فهو يسند فعل الدعوة إلى السلطة العليا التي يذعن لها جميع المخاطبين.

وهذا أبلغ وأقوى تأثيرا –بالطبع– في السامعين من إسناد الفعل إلى ملك الموت، وأبلغ من أن يقول (إذ جاءه موته) لأن حجته أقوى.

وانظر إلى التعبير بـ(الرمي) في (ورماه بيوم حتفه) إنه يحمل معنى القوة وإصابة الغرض، فهي رمية تصيب الغرض لا مهرب منها ولا نجاء، والحجر المرمي به هنا هو (يوم الحتف) فيالها من استعارة جاءت متآزرة مع السياق، متآخية مع مقصد المتكلم، مناسبة لحال السامع.

لقد عرضت الاستعارة (يوم الحتف) في صورة الحجر المسدد الرمية أو السهم النافذ، وهي صورة من المشترك المعرفي بين المتكلم والمخاطب؛ إذ هي منتزعة من البيئة العربية وقد تواضع عليها جميع أهل هذا اللسان؛ لذا يكون لها تأثيرها المزدوج على المخاطبين حجاجيا، وانفعاليا نفسيا.

"وتكمن حجاجية الاستعارة في التغيير الذي تحدثه في الموقف الفكري والعاطفي للمتلقي، فهي لا تسمح للمتلقي بمشاركة المتكلم في الفكرة أو الدعوى التي يدعيها فقط، بل هي تدفعه إلى أن يشاركه انفعاله وإحساسه" [1] وعليه يشعر المخاطبون بخطورة الموقف وهول اليوم وتنفعل به نفوسهم، فيتنبهون ويعملون لما بعده.

(١) حجاجية المجاز والاستعارة، د. حسن المودن، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، –دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، مجموعة من المؤلفين، إشراف /حافظ إسماعيلي علوي، ط١ ابن النديم للنشر والتوزيع –الجزائر، روافد الثقافة ناشرون –بيروت ٢٠١٣م ، ١٦٦/٣.

وسريعا سريعا يترتب على يوم الحتف سلب الآثار والديار ... ، لذا عطف بالفاء التي تفيد أن معطوفها (السلب) قد كان دون مهلة، وعطف (دنياه) على ما قبلها (آثاره وديارِه) من قبيل الإطناب بعطف العام على الخاص؛ لتأكيد التجرد من متعلقات الدنيا وأغراضها جميعا.

ويلاحظ التعبير بالأفعال الماضية (دعاه، رماه، سلبه، صير) دلالة على تحقق الوقوع، وهي من الأفعال الكلامية التقريرية.

وقال (صير لقوم آخرين) ولم يقل (لأهله) ليورث الحسرة في قلبه على ما كان في يده؛ إذ آل إلى غيره، فلا يشتد حرصه على الدنيا والمال، ويصرف اهتمامه إلى الآخرة.

وقد احتج المرسِل لغرضه بحجج قوية يمكن تدريجها على السلم الحجاجي هكذا: الدنيا فانية

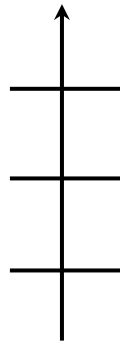

ويختم بقوله (إن الدنيا لا تسر بقدْرِ ما تضر، إنها تسر قليلا، وتجرّ حزنًا طويلا) مستخدما التأكيد الذي ينم عن قناعته بالحكم، وسعيه إلى إقناع المخاطبين، فيمثل التأكيد فعلا كلاميا تقريريا يحمل المخاطبين على الزهد في الدنيا، وعلى طلب الآخرة، والإعراض عن سرورها القليل طلبا لسرور يدوم غدا في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وتمثل التأكيد في (إن) المكررة، واسمية الجملة، وتقديم المسند إليه (الدنيا) على الخبر الفعلي (لا تسر)، والجملة مبنية على افتراض مسبق هو سرور الناس بالدنيا حين تقبل عليهم، وإقبالهم عليها وكأنها تدوم لهم، فهو في تأكيده وضع في حسبانه حال جمهوره، وأراد به أن يصحح مسارهم.

وقد طابق بين (تسر) و(تضر) ليضع المخاطبون السرور في كفة، والضر في كفة ويوازنوا بينهما ليتضح لهم زيف الدنيا وخداعها، وقابل (السرور والقلة) بـ(الحزن والطول) إذ الطول يستلزم الكثرة المضادة للقلة.

هذه المقابلة تصب في غرض المتكلم، وتمثل تذييلا لما سبق، وهو ضرب من الإطناب؛ بغية تنفير السامعين من الدنيا، لذا كانت استراتيجية إقناعية وظفها المتكلم لغرضه توظيفا سديدا.

وقد اهتم المرسل بالجانب الصوتي الموسيقي، واتخذه وسيلة للتأثير على جمهوره وإقناعه، إذ يلاحظ استخدامه للتوازي الصوتي (... الرحلة، ... النقلة،.... دنياه، .... مغناه، .... قليلا، .... طويلا) حيث السجع الذي اتفقت فيه الكلمات وزنا وتقفية لتمثل تواترا نغميا على الآذان، يتردد فيها، فتعي معناها الأذهان ويستقر تأثيرها في القلب؛ ليدفع صاحبه إلى السلوك المراد تحقيقه من الخطاب، ويضاف إليه التوازي المعجمي في (الرحلة، والنقلة) حيث الترادف بين الكلمتين.

كما استخدم التوازي النحوي في قوله (دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه) إذ اعتمد بناء الجملتين على الفعل الماضي متصلا به ضمير المفعول معلقا به الجار والمجرور، وأظهر الفاعل في الجملة الأولى (الله) وأضمر في الثانية لدلالة الأول عليه، كذا نجد التوازي النحوي في بناء الجملتين (تسر قليلا، وتجرّ حزنًا طويلا) منضما إليه التوازي الصوتي حيث الجناس الناقص والنغمة الواحدة في مفردات التركيب.

وقد فطن الإمام عبد القاهر منذ القرن الخامس الهجري إلى أن أهمية السجع والجناس ترتبط بالمعنى، وموقع كل منهما من العقل في نحو قوله "إنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا"[1] وأوْلى شيء من موقعهما من العقل تأثيرهما في قناعاته، وهو ما ترمي إليه التداولية.

ومن الإشاريات الزمانية الواردة في الخطبة قوله (عما قليل) حيث يشير إلى قصر مدة الحياة الدنيا وزخرفها وقصر أعمار الناس فيها، ومنها(الدنيا) التي تشير إلى زمن التنافس المحذر منه، ومنها (يوم الحتف) الذي يشير إلى حتمية النهاية.

(١) أسرار البلاغة، ص١١.

الخطبة السابعة: دعوة إلى التكافل

وخطب يوم عيد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله – عَزَّ وَجَلَّ– ثم قال:

"يا أيها الناس، إني وجدت هذا القلب لا يعبر عنه إلا اللسان، ولعمري – وإن لعمري مني لحقًّا– لوددت أنه ليس من الناس عبد ابتلي بسعة، إلا نظر قطيعًا من ماله، يجعله في الفقراء والمساكين، واليتامى والأرامل، بدأت أنا بنفسي وأهل بيتي، ثم كان الناس بعد".

ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل: "لولا سنة أحييتُها، أو بدعة أمتُّها، لم أبالِ ألا أبقى في الدنيا إلا فواقًا".(١)

بدءُ الخطبة بالحمد والثناء على الله –تعالى– وتلاوة القرآن يرسم صورة للمرسل مقنعة بشخصيته الملتزمة، واتباعه كلام الله؛ مما يدفع المتلقي إلى اتباعه، والتوجه بتوجيهه، فهذا السلوك من المرسِل عمل تداولي يرمي إلى الإقناع بما سيلقى بعد.

ويأتي النداء (يا أيها الناس) لجذب انتباه الناس فهو فعل كلامي يحمل قوة إنجازية تتمثل في تهيئة الناس للتلقي بالإقبال عليه والإصغاء إليه.

ويلاحظ أنه أراد مزيدا من التنبه والإصغاء لذا أثبت (يا) النداء على غير المعتاد؛ ذلك أن ما سيأتي بعد من شأن الناس أن يضنوا به، فهم في حاجة إلى تنبيه أكثر وإصغاء أصغى؛ ليتفهموا قصده.

---

(١) الفواق: قدر ما بين الحلبتين من الراحة (لسان العرب، مادة: فوق)، والخطبة في: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٣٧، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٦، ٢٠٦/٢.

(إني وجدت هذا القلب لا يعبر عنه إلا اللسان) الجملة من الأفعال الكلامية التقريرية بما حوت من تأكيد بـــ(إن) والقصر بالنفي والاستثناء، أي لا طريق إلى التعبير عما في القلب إلا اللسان، ثم يتبع التأكيد تأكيدا آخر بالقسم (لعمري) ثـــم الاعتراض بجملة (وإن لعمري مني لحقا) بين القسم وجوابه، كـــل هـــذا التأكيـــد تمهيد لما يمكن أن يقابل من الناس بالإنكار، وهو قوله (لوددت أنه لـــيس مـــن الناس عبد ابتلي بسعة ...) جعل السعة بلاء ليقنع النـــاس بـــالتخفف منهـــا، إذ شبهها بالبلاء ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو(ابتلي) على سبيل الاستعارة المكنية، والاستعارة لها دور في تمكين المعنى في نفس المتلقي قصد التأثير فيه وتحصيل إقناعه، ذلك "أنها أدل ضروب المجـــاز علـــى ماهيـــة الحجاج" [1] لم يقل (رزق بسعة) حتى لا تحدث المخاطب نفسه قائلة: كيف أفـــرط في رزقي الذي قسمه الله لي؟ أما إذا كانت بلاء هان عليه أن يقتنع بتخفيف ثقله من على كاهله، ويتخلص من جزء منه، بدفعه إلى غيره وهـــو الســـلوك الـــذي يرجوه الخطيب ويدعو إليه.

ثم يرسم الأسوة للرعية بقوله (بدأت أنا ....) ولسان حاله يقول: وما أريد أن أخالفكم فيما أقترح عليكم، بل أنا واحد منكم، أبادر إلى هذا الفعل أولًا أنا وأهل بيتي، إذ الجملة مبنية على افتراض مسبق لقراءته ما يدور في خلد الناس مـــن نحو قولهم في أنفسهم: أيأمرنا وينسى نفسه؟ إذن هـــو يقـــنعهم ببدئـــه بنفســـه ليتبعوه، ويعد هذا من أفعال الكلام من فئة (الالتزاميات) إذ يلزم المرسِـــل نفســـه بهذا الفعل عن قصد وإخلاص.

(١) اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ط٢ المركز الثقافي العربي –الـــدار البيضاء ٢٠٠٦م ص ٢٣٣.

"ولأن الطلب عبء يحمله المتكلم للسامع فمن الأفضل في معظم الحالات الاجتماعية، أن يتحاشى المتكلم العبء المباشر عبر تقديم طلب غير مباشر" [1] لذا لم يستعمل الأمر المباشر وإنما قال (لوددت) استمالة للناس إلى ما يود ويرغب؛ حتى لا يقابل بالرفض، وقد سبقت البلاغة العربية إلى هذا ، قال صاحب الإيضاح "ثم الخبر قد يقع موقع الإنشاء: إما للتفاؤل، أو لإظهار الحرص على وقوعه [...] والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين، أو للاحتراز عن صورة الأمر؛ كقول العبد للمولى إذا حوّل عنه وجهه: "ينظر المولى إلي ساعة" أو لحمل المخاطب على المطلوب"[2] والمرسل هنا يريد حمل المخاطبين على المطلوب بطريقة تحببه إليهم دون أن يظهر في صورة الآمر المتسلط، وتعد جملة (لوددت ...) من الأفعال الكلامية من فئة التعبيريات، فهو يعبر عن موقفه النفسي من هذا الفعل (أن يجعل العبد جزءا من ماله في الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل) فهو يميل إليه ويحبه، وقد توافر فيه شرط الإخلاص.

وقد أحسن الاحتجاج لما يريد هكذا:

الحجة الأولى: وددت أن يجعل العبد جزءا من ماله في الفقراء.

الحجة الثانية: بدأت بنفسي وأهل بيتي.

ليصل إلى ما يريد: اجعلوا جزءا من أموالكم في الفقراء .....

وهكذا كان بدؤه بنفسه حجة قوية ترمي إلى إقناع الناس ودفعهم إلى السلوك نفسه.

(١) التداولية، يول، ص٩٤.

(٢) الإيضاح مع البغية، ٢/٢٧٥

وحثه الناس على جعل جزء من أموالهم في الفقراء والمساكين ... مبني على الخلفية المعرفية الدينية المشتركة بين المسلمين، حيث الإحسان إلى هذه الفئات التي تعاني العوز والحاجة مما حث عليه ديننا الحنيف.

ويمكن القول: إن الفعل (بدأت) إنشاء لفعل البدء، والفعل (كان) إنشاء لاقتداء الناس به، على اعتبار أنه عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دلالة على تحقق وقوعه.

وقد وظف المرسل آليات لغوية وبلاغية لتحقيق أغراضه التداولية منها: النداء، والتأكيد، والقسم، والقصر، والاستعارة، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، والتقابل بين (سنة أحييتها) و(بدعة أمتها).

وقد شاعت الإشاريات الشخصية إلى المرسِل، حيث ضمائر المتكلم: البارزة: المنفصلة (أنا) والمتصلة (تاء المتكلم وياؤه)، والمستترة في (أبالي، وأبقى) حيث يتحدث عن نفسه ويطبق ما يريد من المخاطبين عليه؛ ليقدم لهم القدوة، فالسياق هو الذي اقتضى تلك الضمائر.

وكلمة (بعد) تشير إلى زمان تتابع الناس في الفعل بعد رؤيته يطبق على نفسه وأهل بيته، أما قوله (فواقا) فهو إشارية زمانية إلى قصر المدة التي يقنع بها للتعمير في الدنيا.

وارتسمت شخصية المرسل من خلال الخطاب-علاوة على الصورة التي يعرفونها له من قبل- في صورة مقنعة من خلال البدء بالحمد والثناء على الله وتلاوة آيات من القرآن، الأمر الذي أبرزه ذلك الملتزم بمنهج الله الذي يرجو رضاه ويستمد هديه من كتابه، وبإظهاره تضامنه مع الناس، فهو ليس حاكما متسلطا يستغل نفوذه، وإنما هو واحد منهم يبدأ بنفسه، ويرجو الخير لعامتهم.

الخطبة الثامنة: الإمام الظالم عاصٍ لا الهارب منه

وخطب فقال:

"أما بعد: أيها الناس، فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عنكم يوم القيامة، فإن من زافت [1] به منيته، فقد قامت قيامته، لا يَسْتَعْتِبُ من سَيِّءٍ، ولا يزيد في حَسَن. ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصُح عليه الأعجميّ، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا[2]، لا يرون الحق غيره". ثم قال: "إنه لحبيب إليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله".[3]

للإنشاء أثره في جذب انتباه المتلقي واستقطاب حواسه، لذا أتبع النداء النهي المؤكد في (لا يطولن، لا يبعدن) لغرض التحذير؛ إذ يحذرهم من أن يطول عليهم أمد اتخاذ الدنيا لهوا، أو يعدوا يوم القيامة بعيدا، والفعل الكلامي هنا قوته تتمثل في التأثير في اعتقادهم؛ إذ يبغي المرسل عدولهم عن اعتقاد طول الأمد، وبعد القيامة إلى قصر العمر، وقرب الجزاء على العمل.

---

(١) زَوْفُ الحمامة: إذا نشرت جناحيها وذنبها على الأرض. (لسان العرب / زوف) .

(٢) يمكن أن يفسر (الدين) هنا بما جاء في لسان العرب (والدين: الطاعة) مادة (دين).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم ص٤٢، ولابن الجوزي ص٢٤٠، الخليفة الزاهد، لعبد العزيز سيد الأهل، ص١١٧، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٧، ٢٠٦/٢.

وقد وصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين، فقد اتفقتا في الإنشائية، وبينهما جامع قوي؛ إذ يرميان إلى غرض واحد، كما حسن الوصل اتفاقهما في الصيغة (لا والفعل المضارع المؤكد بنون التوكيد الثقيلة).

ويعلل النهي بقوله (فإن من زافت به منيته، فقد قامت قيامته) فيصمم استعارة تؤكد قرب المنية؛ إذ شبهها بالحمامة إذا نشرت جناحيها وذنبها وسحبتها على الأرض بجامع الدنو، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (زافت) وفيها تجسيد للمنية بغية تحقيق قربها كما تتحقق مما هو مادي معاين، وقد جاءت الاستعارة دالة على المعنى مجسدة لما يمر به الإنسان من مرح في الحياة وفرحة بها كما تحلق الحمامة في الجو، واقتراب المنية يجسده هبوط الحمامة على الأرض ساحبة جناحيها وذيلها، ففي الصورة انتقال من حال الفرح والحركة إلى حال السكون والركود "وقد احتلت الاستعارة في البلاغة المعاصرة مكان الصدارة ؛ لطبيعتها المرنة المقارنة بين قطبيها : المذكور والمغيب ،.....، فكان لها دورها في التأثير الممارس عبر النصوص والخطابات ، ومن ثم الدفع إلى أفعال معينة ينشدها المبدعون"[1] وهو يريد أن يشعر الناس بقرب الأجل، ومن ثم الدفع إلى العمل للآخرة، فالبلاغة هنا سابقة على التداولية؛ إذ الاستعارة يتبعها تأثير تداولي.

ويضع الفعل الماضي (قامت) موضع المستقبل ليدل على تحقق الوقوع، ودل اتحاد الزمن في الشرط والجواب على الفورية، وبالتالي ليس لديه فرصة للتصحيح، فـ(لا يستعتب من سيء، ولا يزيد في حسن) جفت الأقلام ورفعت الصحف، فلتغتنم عمرك قبل أن يكون ذلك، ولتستعتب الآن من سيئاتك، ولتزدد من الحسنات وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع العمل.

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص٢٣٧،٢٣٨.

وقد عقد المناسبة بين الجملتين بالتقابل الذي مثل محسنا بديعيا من ناحية، وعنصرا من عناصر تماسك النص من ناحية ثانية، وحسن الوصل بين الجملتين من ناحية ثالثة.

وللوصل هنا بعد تداولي؛ ذلك أن المخاطب عندما يسمع (لا يستعتب من سيء) فإنه يستدعي عنده ضده وهو الحسن، فالمرسل راعى خطور الضد بالبال عند حضور ضده، فأردف ببيانه تلبية لحاجة المخاطب قائلا (ولا يزيد في حسن). (ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله) يستخدم (ألا) الاستفتاحية الدالة على أهمية ما يلقى بعدها، وعلى تحقق المرسِل منه وتأكده، ويأتي بعدها بجملة خبرية (لا سلامة..) فمن ابتغى السلامة في غير السنة فقد ضل، أي أن مقصوده: الزموا السنة، إذن غرض الجملة الحث على اتباع السنة؛ فإن في خلافها الهلكة، وهو ما يعرف في التداولية بالاستلزام الحواري، وعرف قبل في البلاغة بالغرض البلاغي للخبر.

وتنكير (مخلوق) لإفادة العموم، أي ولو كان المخلوق ولي الأمر فلا طاعة له عليكم في معصية الله، أي لا تطيعوني إذا عصيت، وهو هنا يرسم شخصية المحاج غير متسلطة، لا تطلب شيئًا إلا في حدود طاعة الله، وهذا أحرى لاتباعه، وحمل الناس على تنفيذ نصحه وامتثال أمره.

وقد تضمن الكلام قياسا يمكن هيكلته كالتالي:

لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

ولي الأمر مخلوق.

ن: لا طاعة لولي الأمر في معصية الله.

إذن التنكير البلاغي الذي أفاد العموم في (مخلوق) هو الذي أدى إلى أن يفهم منه أنه يريد نفسه.

(ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم) يتحدث عن أمر قد ثبت عند الناس في حكم الأمويين قبله، ذلك أن يعدوا من هرب من ظلم الإمام عاصيا، وهو يريد أن يصحح لهم هذا الفهم الخطأ، فيقول: إن الإمام الظالم أولى أن يوصف بالمعصية، وهنا تبرز شجاعته في الحق فهو لا يخشى قرابته (بني أمية) واعتراضهم على هذا الحكم أو نفورهم منه.

وفي هذا تصريح لمن خرج هاربا من ظلم مَنْ قبله من الخلفاء بالعودة ولا حرج عليه؛ فقد رفع عنه الظلم، وهذا يستلزم رفع المؤاخذة عنه، إذن في الكلام نتيجة مضمرة، وهو ما تعده البلاغة العربية غرضا بلاغيا للخبر.

ويكرر (ألا) إبقاء على انتباه المخاطب، وحرصا على ألا يتفلت منه؛ لأهمية الآتي (وإني أعالج أمرا ...) بالتنكير أي أمرا عظيما تصعب معالجته هو أمر الحكم، وقد بنى على افتراض معرفة الناس له، ثم يصفه بـ(لا يعين عليه إلا الله) والجملة التي تقع صفة لنكرة تعد من التقريريات عند (سيرل) ؛ فهي تقرر صعوبة الأمر وتؤكدها، إذن هو ليس فرحا بالخلافة ولا بطرا بها، وإنما قلق يستشعر عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، ويسأل الله العون عليها.

ويتابع وصف هذا الأمر بقوله (قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصُح عليه الأعجميّ، وهاجر عليه الأعرابي) جامعا بين المتقابلات؛ ليوضح مدى التنافس على أمر الخلافة بين الناس، فقد بالغ الناس في التسابق في طلبها، كلٌّ يثبت أحقيته، ويركب الصعاب من أجلها (حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره) أي فرضا لا بد منه، فقد شبه الخلافة بالدين، ووجه الشبه الالتزام والضرورة من وجهة نظر الحريصين عليها، لذا استخدم فعل الظن (حسب) أي حسبوه دينا وهو ليس كذلك، ثم فسر ذلك بقوله (لا يرون الحق غيره) والجملة

مؤكدة بقصر طريقه (النفي والاستثناء) تصور مدى إصرارهم على أن الخلافة حق لهم، فلا حق غيرها يستميتون في طلبه.

وقد جاءت نتيجة هذا القياس مقدَّمة هي قوله (قد فني عليه الكبير). ويمكن تمثيل هذا على السلم الحجاجي هكذا:

أفنوا عليه أنفسهم

لا يرون الحق غيره

حسبوه دينا

ثم قال (إنه لحبيب إليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله)

جملة مؤكدة بـ(إن) والاسمية، و(اللام) المقترنة بالخبر لإقناع المخاطب الذي رأي بأم عينيه تسلط حكام بني أمية على الأموال والأعراض، بل الدماء، إنه يرسم لنفسه صورة يريد لها أن تمحو الصورة المرسومة في الأذهان للحكام الأمويين وتجبها، وتضع أسس حكمه الذي يحافظ فيه على أموال المسلمين وأعراضهم، فلا يُنال شيء منها إلا بحق.

وتقديم المسند (حبيب) أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه المخبر عنه بهذا الوصف.

وقد اختار بنية الفعل المضعف العين(أوفر) للمبالغة والتكثير اللذين يؤكدان حرصه على صون أموال المسلمين وأعراضهم.

ويختم بقوله (ولا قوة إلا بالله) ولسان حاله يقول: اللهم أمدني بقوة من عندك؛ لأحافظ على الأموال والأعراض، فالجملة تستلزم الدعاء وطلب العون من الله تعالى.

وقد كثرت وسائل التأكيد في الخطبة ما بين (نون) التوكيد، و(ألا) المكررة أربع مرات، و(إن) المكررة أربعا أيضا؛ لأهمية موضوعها وحاجته إلى التقرير في نفوس المخاطبين، والإقناع به.

ولم يحفل بالسجع إلا في موضعين حين قاد المعنى إليه في (.... الكبير، .... الصغير) و(... الأعجميّ، .... الأعرابيّ) ليس السجع وحسب بل جاءت الجمل متوازنة، متساوية الكلمات؛ ليثبت في الأذهان كيف كان ولع الناس وشغفهم بهذا الأمر، فقد كان "على وعي تام بوظيفة أخرى [للسجع] هي الوظيفة التذكرية" [1] .

ويتضح حضور المخاطبين في نص الخطبة من خلال الإشاريات الشخصية حيث ضمائر الخطاب في (عليكم، وعنكم، وإنكم، وأموالكم، وأعراضكم) فهم المقصودون بالموعظة ومحور اهتمام الخطيب، أما إشاريات المتكلم فقد تمثلت في ياء المتكلم في (إني، وإليّ) والضمير المستتر في (أعالج، وأوفر) وهي تشير بمعونة السياق إلى عظم المعاناة، وثقل العبء، وشدة المجاهدة.

و(الأمد، ويوم القيامة، وقيامته) إشاريات زمانية إلى قصر المدة، و(الإمام) إشارية اجتماعية رسمية إلى الحاكم أو ولي الأمر تلمح إلى ضرورة أن يكون قدوة للرعية في إقامة العدل، لا أن ينالهم ظلمه.

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي –مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، محمد العمري، أفريقيا الشرق –الرباط ٢٠٠٢، ص ١١٧.

الخطبة التاسعة: التخلص من القطائع وردها إلى بيت المال

وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

"أما بعد: فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إلي، ليس علي فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي" اقرأ يا مزاحم -وكان مولاه- وقد جيء قبل ذلك بِسَفَطٍ فيه تلك الكتب، فقرأ مزاحم كتابًا منها، ثم ناوله عمر، وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلَم[1]، فجعل يَقُصُهُ، واستأنف مزاحم كتابا آخر، فقرأه، ثم دفعه إلى عمر، فقصه، فما زال حتى نودي بصلاة الظهر.[2]

ربما ظن الناس حين جيء بسفط الكتب قبل أن يبدأ كلامه، وقبل أن يناوله مزاحم ليقص -ربما ظنوا أن هذه كتب عطايا الخليفة الجديد للناس وقطائعه التي يقطعهم إياها، قد انقطع عنهم ثلاث ليال في كتابتها ليفاجئهم بها -على عادة الناس في طمعهم في عطايا الخلفاء- فإذا بتوقعهم يبطل ورجائهم يخيب، إذ يرد قطائعه، وينشأ عن ذلك استلزام حواري، مقتضاه (ردوا قطائعكم) الأمر الذي هال الأمراء وأنكروه إنكارا شديدا، وغلت له ثائرتهم.

إنه يعلم الناس رد الحقوق إلى أصحابها، ويحثهم على الزهد في الدنيا بطريقة عملية، فهو بهذا يؤدي عمل تأثير بالقول، إذ يقول إنه رد العطايا والقطائع التي ورثه إياها آباؤه؛ ليكون قدوة لغيره من الناس وخاصة أمراء بني أمية وكبارهم.

---

(١) الجلم: المقص (ينظر: لسان العرب، مادة: جلم)

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص١٢٦، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٨٩، ٢/٢٠٧.

وقبل أن يصرح بردها جاء بسببه (ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها) فقد كان إعطاؤها وقبولها عن غير وجه حق، هذا التعبير (ما كان له أن يفعل) نفي للاستحقاق، وأصل التركيب: ما كان فلان فاعلا كذا، فلما أريد المبالغة في النفي عُدل إلى نفي المصدر[1] ، وهو بهذا يقرأ ما في نفس المخاطب فيبني خطابه بناء يغنيه عن أن يسأل عن سبب الرد.

وقوله (وما كان لنا أن نقبلها) يفيد الندم، فهو تعبير عن موقفه النفسي الذي توافر فيه شرط الإخلاص، أي أنه فعل كلامي من فئة التعبيريات، قوته المتضمنة في القول هي الندم.

وقد عطفت الجملة على سابقتها مراعاة لحال السامع الذي يمكن أن يعترضه بقوله (لماذا قبلت؟) فبادر بالوصل؛ ليقول لم أكن على حق في قبولها، في مبادرة للاعتراف بالخطأ السابق سعيا إلى تصحيحه، وفي هذا ملحظ تداولي إذ بنى الخطاب على معرفته بحال السامع.

وفصلت جملة (ليس علي فيه..) عن سابقتها (وإن ذلك قد صار إلي) لكمال الاتصال؛ فهي مؤكدة لما قبلها في معنى الانفراد بالأمر والتصرف فيه.

ويأتي في أول كلامه بجملة خبرية تقريرية مؤكدة بـ(إن) واسمية الجملة، و(قد)، وهذا يدل على عمق قناعته بمصدر العطايا وأنها لم تكن من كسبه، واعتنائه بالحكم الذي تضمنته الجملة، وحرصه على تأكيده لجمهور المخاطبين.

وهو بذلك يؤدي عمل تقرير بالقول "والشرط الافتراضي الذي تقوم عليه التقريريات هو امتلاك الأسس القانونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها، والفرق بين التوكيد والخبر العادي بمعايير (سيرل) في درجة الشدة للغرض

(١) ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، دار سحنون -تونس ١٩٩٧م، ٣/٢٩٤،٢٩٣.

المتضمن في القول" [1] وهو عين ما نصت عليه البلاغة العربية من منع الشك أو التردد، ودفع الإنكار، والعناية بالحكم والقناعة به.

وقد عبر بالنكرة (عطايا) لتتآزر مع صيغة الجمع في الدلالة على الكثرة، ثم يؤكد عدم أحقية العطاء والقبول بالقسم (والله ما كان ...) وله "غرض تواصلي هو دفع المخاطب إلى الوثوق بكلامه" [2] ويتبع بالتعبير بالمضارع المؤول مع (أن) بالمصدر دون المصدر الصريح (الإعطاء، والقبول) ليستحضر المضارع الصورة في الأذهان ليقع عليها الإنكار والتقبيح.

ثم يعلن أنه الآن يملك التصرف فيها لا يحاسبه عليه أحد من البشر، ولا يستطيع أن ينكره عليه، وهذا مقتضى قوله (وإن ذلك قد صار إلي) الذي أكده بقوله (ليس علي فيه دون الله محاسب) مقدما المسند (علي) على المسند إليه (محاسب) ليفيد الاختصاص، ويحترس بقوله (دون الله) معترضا به بين خبر (ليس) واسمها تعظيما لله -تعالى- ودفعا لتوهم المخاطبين انخلاعه من محاسبة الله -تعالى- ومراقبته، وتأتي كلمة (محاسب) نكرة لتفيد العموم، أي لا يحاسبه أحد من البشر كائنا من كان، فالأمر موكول إليه وحده، وهنا يعرض صورة قوية لذات الخطيب ذلك الذي لا يستطيع أن يرد تصرفه أحد، وليس عليه محاسب إلا الله، فصورة الذات هنا جاءت صدى لنظم الكلام، فالبلاغة هنا سابقة على التداولية؛ إذ تعاون التقديم والتنكير على رسم صورة الذات.

ثم يعلن ما لديه من إجراء بشأن العطايا بتلك الجملة القوية (ألا وإني قد رددتها) المفتتحة بـ(ألا) التي تفيد التحقق والتأكيد، و(إن) واسمية الجملة، و(قد) المقترنة بالفعل الماضي المفيد تحقق الوقوع.

---

(١) التداولية عند العلماء العرب، ص ٢٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٠.

لقد صاغ الجملة بعناية فائقة حتى لا يترك في نفس أحد شيئا، لم يقل (أردها) بالمضارع الدال على الحال، وإنما اختار صيغة الماضي ليدل على تحقق الفعل، لينشأ عن ذلك فعل كلامي (عمل بالقول) هو إنشاء رد العطايا.

وليؤكد صدق التزامه أتبع بجملة (وبدأت بنفسي وأهل بيتي) بالماضي – أيضا– المفيد تحقق الوقوع؛ ليكون قدوة لغيره من الأمراء والأشراف الذين لديهم قطائع منحهم إياها بنو أمية، وهذا يزيد في إيضاح صورة الذات وصدق الخطيب، وبالتالي يزيد في الإقناع، وتعد الجملة من حجاج القياس على الأَوْلى، أي لو كان شيء من المحاباة في تلك العطايا لكان لنفسي ولأهل بيتي، لكن هأنذا بدأت بهما في ردها.

وقد تعاون السياق الحالي والهيئة التي ظهر عليها الخطيب على تأييد السياق المقالي؛ إذ ظهر الرجل في ثياب رخيصة يرتديها لأول مرة في حياته [1] ، بعد أن كان فيما سبق قبل عهده بالخلافة حسن الثياب فخمها عطرها، ثم أيد القول بالعمل، إذ جعل مزاحم يقرأ سجلات القطائع كتابا تلو الآخر، ويناوله عمر فيقصه بجلم كان في يده وهو على المنبر الذي يمثل إشارية مكانية لها أهميتها في الإعلان وإطلاع الناس على هذا العمل حيث لا يخفى مكانه على أحد؛ ليعرض المعنى على جمهور المخاطبين مرتين: مرة عن طريق القول، وأخرى عن طريق الحركة أو ما يعرف بلغة الجسد، حيث يعد المجيء بسفط الكتب وقصها على المنبر من البيان بالإشارة الذي يقوي اللفظ ويوضحه، ويقدم دليلا على صحته، فبعد أن قال (وإني قد رددتها) أقام الدليل العملي على ردها؛ ليكون الحجاج أقوى، والإقناع أعمق، لعل غيره ممن أقطعوا قطائع يسلكون سلوكه في ردها إلى بيت مال المسلمين.

(١) ينظر الخليفة الزاهد، ص ٩٧.

وهو ما أشار إليه الجاحظ بقوله "نعم العون هي [الإشارة] لـــه [اللفــظ]، ونعم الترجمان هي له" (١)

وقوله (هؤلاء القوم) إشارية شخصية اجتماعية إلى أسلافه من حكام بني أمية، فهم أهله وعشيرته الذين يجمعه بهم النسب، ثم توالت الإشاريات إلى ذات المرسِل بضمائر المتكلم؛ إذ يعلمهم رد حقوق المسلمين إلى بيت المال، فلا بد أن يطبق على نفسه أولًا.

قول الراوي: فما زال حتى نودي بصلاة الظهر إشارية زمانية إلى طــول المدة.

والخطبة -على قصرها- حاشدة لكثير من أنواع التأكيد:-

١- أما.

٢- (إن) المكررة ثلاث مرات.

٣- تقديم المسند إليه (هؤلاء القوم) على الخبر الفعلي (قد كانوا).

٤- القسم.

٥- (قد) المقترنة بالفعل الماضي ثلاث مرات.

٦-ألا.

فالفعل الكلامي العام للخطبة هو التقرير، تقرير تغير الحال بوجه عام عما كان عليه في عهد من كان قبله من خلفاء بني أمية، وبوجه خاص في القطــائع التي كانوا أقطعوها الأمراء والأشراف دون وجه حق "فالفعل الكلامي الذي ينجــز بواسطة متوالية من الأفعال الكلامية يطلق عليه الفعل الشامل" (٢).

(١) البيان والتبيين،٨٣/١.

(٢) ينظر: النص والسياق، فان دايك،، ص ٢٩٥

الخطبة العاشرة: الحث على التزود للآخرة

وخطب فقال:

"إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه، فرغبوا ورهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، ولا يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيرًا، وإنما تقرُّ عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يبرأ من كلْم إلا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يفرح؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتَخْسَرَ صفقَتِي، وتَظْهَرَ عورتي، وتَبْدُوَ مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغني والفقير، والموازين منصوبة، والجوارح ناطقة، فلقد عُنِيتُم بأمر لو عُنِيَتْ به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، أو الأرض لانفطرت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما؟ ".[1]

ينطلق من مبدأ حجاجي مسلم به هو حاجة السفر إلى الزاد، ثم يبني على استعارة السفر للانتقال من الدنيا إلى الآخرة حاجته إلى الزاد، إذ ينصح بالتزود له، لكن الزاد هنا مختلف عما يعد لأسفار الدنيا، إذ هو العمل الصالح الذي يثقل الموازين في الآخرة، ويقي من النار، كما يثقل الزاد المتاع في أسفار الدنيا، ويقي من الهلاك جوعا.

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، راجعه وحققه/ إبراهيم محمد صقر، ط١ مكتبة مصر –القاهرة ٢٠٠٨ م، ٣/ ٧٣ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٣٢، والجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٩٣، ٢/٢٠٩.

وقد استخدم القياس كحجة منطقية تقنع بالتزود للآخرة ويمكن هيكلته كالتالي:

لكل سفر زاد.

الانتقال إلى الآخرة سفر.

ن: تزودوا للآخرة.

وقد أضمر المقدمة الثانية ليصل سريعا إلى قصده وهو النتيجة، ففي الإضمار مبادرة إلى المطلوب، فاتخاذ الزاد للآخرة أولى.

فهنا نرى الأمر (تزودا) فعلا كلاميا يحمل قوة متضمنة فيه هي النصح والإرشاد والعظة الصادقة، وهي ما يسمى في البلاغة العربية بالغرض البلاغي للأمر.

ثم يتبع بما من شأنه أن يزيد في حملهم على التزود والجدية فيه وهو قوله (وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه) إذ المعاينة ترسخ الصورة في الأذهان، فتجعل النفس تجد في فعل ما يجلب ذلك الثواب رغبة فيه، ويدفع العقاب رهبة منه، فالجملة مبنية على افتراض مسبق وخلفية معرفية مشتركة بين المتخاطبين هي كون المعاينة أدل على اليقين، فقد أراد أن يقول: كونوا على يقين من الثواب والعقاب.

وقد عملت الاستعارة في (لسفركم) والتشبيه في (كونوا كمن عاين) على إقناع المخاطبين بما لهما من وظيفة نفسية انفعالية، وأخرى استدلالية إقناعية، فمن يعاين ليس كمن يسمع أو يقرأ، فما راء كمن سمع، للمشاهدة عيانا من التأثير في النفس والاستقرار في القلب ما يجعل صاحبهما يقتنع ويسلس قياده، ويسلك ما يُوجَّه إليه.

ويتبع النصح النصح إذ يقول (ولا يطولن عليكم الأمد) أي لا تعدوا الأمد طويلا فتسوفوا بالتوبة وتتراخوا في العمل؛ لئلا يترتب على طول الأمد قسوة

القلب والانقياد للعدو؛ فقد بين عواقب أن يعتقدوا طول الأمد كحجة للتحذير منه تزيد في قناعة المخاطبين، ويستخدم التأكيد بـ(النون الثقيلة) في (لا يطولنَّ) كآلية لغوية للحجاج.

ولم يقتصر على (قسوة القلب) كعاقبة لطول الأمد المحذر منه، بل أتبع بما هو أخطر منها (الانقياد للعدو) الذي يفقد الأمة هويتها، ويلغي وجودها؛ ليستشعر الناس خطره، فيحذروا الإحساس بطول الأمد.

ويلاحظ احتجاجه بحجة جاهزة من كتاب الله -تعالى- يتخذها وسيلة لإقناع المخاطبين، إذ يقتبس من قوله -تعالى- ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الحديد ١٦.

والتعبير بالمضارع (تقسو، وتنقادوا) لتمثل الصورة في الأذهان وكأنها رأي العيان، صورة القسوة، وصورة الخذلان والخزي والاستسلام للعدو، وفي ذلك تنفير مما يؤدي إلى الصورتين، وحجة للتعجيل بالتزود للآخرة وعدم التسويف فيه الذي داعيه الإحساس بطول الأمد وبأن في العمر متسعا للتوبة والعمل والتزود.

ثم يعلل بقوله (فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، ولا يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا) وهو يؤدي عملا تقريريا بالتأكيد بـ(إن) والقسم، وبناء الفعل للمجهول كوسيلة لإنكار أن يكون لبسط الأمل فاعل والحال أن صاحبه لا يدري هل سيصبح بعد إمسائه، أو سيمسي بعد إصباحه، ربما تخطفته المنية فيما بينهما، فماذا يقول لربه؟ أيقول كنت سأعمل بعد حين؟ أو كنت سأتزود بالتقوى لاحقا؟ أو يقول ارجعني أعمل

صالحا؟ إنه ليس شيء إلا اليأس وانقطاع العمل، وفي البناء للمجهول بعد تداولي يتمثل في نقل الوظيفة المحور من الموضوع الأول وإسنادها إلى غيره [1].

ويستخدم بنية التقابل بين (لا يصبح ..) و(لا يمسي..) ليفيد شمول الخوف والقلق له على أية حال، لا يخلو منه وقت من الأوقات، ويعد التقابل آلية بلاغية من آليات الحجاج، فالبلاغة سابقة في هذا الصدد على التداولية.

ثم يؤيد بالدليل الواقعي (فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيرًا) وهنا يحيل إلى المشترك المعرفي بين البشرية جمعاء من إدراك الموت لكل حي مهما عمّر واغتر وتجبّر، لكنه يصوغ الجملة صياغة تخفق لها القلوب؛ إذ يصور تبدل الحال من حرية واغترار إلى أسر وموت، من دنيا الرغد إلى شدة الأحداث وهول الخطوب، فقد شبه الخطوب بالحبائل تشبيها مؤكدا أضيف فيه المشبه به إلى المشبه، واشتداد الخطوب وإتيان المنية عليه أسر لا يستطيع منه فكاكا، ناهيك عما توحي به كلمة الأسر مما يتعاقب على المرء من ذل وهوان.

العاقل لا يغتر بدنياه، ويضع نصب عينيه أنها مهما ت.

٠ زينت فهي إلى زوال، فلا يكون منه فيها إلا ما يرضي الواحد الديان.

ويمكن القول: إن الصورة بمجملها استعارة تمثيلية خيلت الإنسان موثقا بالمصائد قد أحكمت حبالُها القبضَ عليه من كل جانب مقودا أسيرا إلى الموت، فما أذلها من حال، وما أهونه من إنسان.

وقد حوت داخلها تشبيه الخطوب بالحبائل(المصايد)، وتشبيه الإنسان في مآله إلى الموت بالأسير لا يملك من أمر نفسه شيئا وقد آل إلى الذل والهوان.

(١) ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، احمد المتوكل، ط١ دار الأمان –الرباط، منشورات ضفاف –بيروت، منشورات الاختلاف –الجزائر ٢٠١٣م، ص١٢٢.

هذه الصورة كفيلة بأن تجعل المخاطبين يقتنعون بنبذ متع الدنيا ونعيمها، ويسلكون طريق الآخرة.

ويذيل قوله (فإنه والله ما بسط أمل ..) بقوله (وإنما تقر عين من وثق بالنجاة ...القيامة) فقد أكد به مضمون ما سبق من عدم بسط الأمل إذا كان الشخص لا يدري هل سيصبح بعد إمسائه أو العكس، فإنه قد تدركه المنية فيما بينهما، فهو أيضا لا تقر عينه لأنه لا يثق بالنجاة من عذاب الله، ولا يأمن أهوال القيامة، فمن كان في الدنيا هنيئا قرير العين فهو غافل، لا يدري حقيقتها ولا يفهم كنهها.

وينشأ من الجملتين استلزام حواري مؤداه أن المخاطبين لا تقر أعينهم، ولا يأمنون أهوال القيامة، وهذا إيعاز بالجد في التزود للآخرة والاستعداد لها.

والجملتان من تقريريات (سيرل) حيث التأكيد بالقصر، وحيث إن صلة الموصول (من) فيهما لها غاية تداولية هي إيضاح إبهام الموصول[1] وتقرير الغرض المسوق له الكلام، وقد نشأ التقرير عن القصر، وعن تعريف المسند إليه بالموصولية، فالتداولية ظل البلاغة الذي يتبعها.

وقوله (فأما من لا يبرأ من كلْم إلا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يفرح؟) يقرر فكرة أن الإنسان ليس بمأمن، فهو لا يكاد يشفى من جرح حتى يصاب بآخر؛ فبعيد أن يطمئن فضلا عن أن يفرح.

والاستفهام يحمل قوة متضمنة في القول؛ إذ يؤدي عمل التعجب والإنكار، والعمل اللغوي (الفعل الكلامي) هنا هو الغرض البلاغي للاستفهام، فلا فرق هنا بين التداولية والبلاغة، وإذا كان ذلك موجودا في البلاغة فما داعي التغريب؟

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ص ١٨٥.

وجملة (أعوذ بالله أن آمركم ...) تعطي استلزاما حواريا مؤداه: أنا مخلص في نصحكم، آمركم بما آمر به نفسي، وتمثل الجملة حجة مقتبسة من كتاب الله – تعالى– أصدق كلام وأبلغه، قال تعالى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ هود ٨٨.

والجملة مبنية على افتراض مسبق هو مظنة الناس أنه يمكن أن يعظهم دونه، فجعل يبدي بها تضامنه مع المخاطبين، ويؤكد أنه لا يريد لهم إلا الخير والصلاح.

ثم يرسم مشهدا يظهر فيه خزي من يأمر بخلاف ما يفعل؛ إذ ينكشف عواره، وتشهد عليه جوارحه بقوله: (فتَخْسَرَ صفقَتِي، وتَظْهَرَ عورتي، وتَبْدُوَ مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغني والفقير، والموازين منصوبة، والجوارح ناطقة).

وفي قوله (تخسر صفقتي) تصوير للعمل والمثوبة بصفقة بيع وشراء، إذ يقدم العمل في الدنيا ثمن المثوبة في الآخرة، هذه الصورة مستوحاة من البيئة التي يحرص أهلها على النفع المادي مخزونا معرفيا مشتركا. وهي صورة تؤكد حرصه على التسوية بينه وبين الرعية؛ إذ لا يرضى أحد بالخسران.

وتقريرا لمشهد الخزي الذي ينال من يأمر غيره بما ينهى عنه نفسه يتبع الجملة الجملة (وتظهر عورتي، وتبدو مسكنتي) فيالها من فضيحة يربأ بنفسه عنها، ويبرأ منها، والحال أن الموازين منصوبة والجوارح ناطقة، فلا مفر ولا مهرب، ولا مجال للإنكار، إنه يقدم تلك الجمل حججا قوية على أنه يأمر المخاطبين بما يأمر به نفسه، وأنه لهم ناصح أمين، إذ مخالفته لهم تؤدي إلى الخسران والفضيحة، وانكشاف العوار، والخزي والذل والهوان على رؤوس الأشهاد.

وقد تضامت الجمل (تخسر..، وتظهر..، وتبدو..) ووصل بينها بالواو للتوسط بين الكمالين مع قوة الجامع بينها، كونها جميعا نتيجة المخالفة، وقد حسن الوصل اتفاقها في الفعلية والمضارعة.

والمعنى: لو أمرتكم بما أنهى عنه نفسي لخسرت صفقتي وظهرت عورتي وبدت مسكنتي، فهو المذهب الكلامي عينه، لكن البلاغيين العرب لم يتوسعوا فيه توسع المحدثين في الحجاج الذي أدرجوا في سلكه البلاغة كلها، وأسموه البلاغة الجديدة، فبذور الحجاج وغراسه عربية، ونموه وتطوره وتوسعه غربي.

وانظر إلى براعة استخدامه اسم المفعول (منصوبة) الذي استحضر صورة نصب الموازين بما له من دلالة الحال، وكأنها ماثلة الآن، واسم الفاعل (ناطقة) الذي خيل إلينا أن الجوارح قد نطقت بالفعل على حين أن زمان نطقها يوم الحساب؛ ليفيد تحقق نطقها، وأنه كائن لا محالة مما يفضي إلى أن يخجل المرء من نفسه حين يخالف قولُه فعلَه.

والتعبير بالوصف آلية لغوية من آليات الحجاج يتوسل بها إلى بلوغ الإقناع، والتأثير في المخاطبين، ودفعهم إلى السلوك القويم.

وقد وظف بنية التقابل بين (الغني) و(الفقير) في إفادة الشمول، فلن يتخذ الغني ساترا ولن ينجو بجرائمه على نحو ما يحدث في الدنيا، كل الناس في هذا اليوم سواء، الأعمال ظاهرة والأسرار مكشوفة، وكلٌّ محاسب على ما اقترف، أي وإن كنتُ أمير المؤمنين في الدنيا فأنا وأنتم عند الله سواء يوم القيامة، هذا ما يلزم عن العبارة.

ويظهر من قوله (فلقد عنيتم بأمر ....) أن المراد بكلمة (أمر) المبهمة هنا أمر التكليف وحمل الأمانة الذي جاء في قوله -تعالى- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾

الأحزاب ٧٢، والجملة مبنية على افتراض استهتار الناس بالأمر وعدّه سهلا هينا وهو عند الله عظيم.

أراد أن يعبر عن ثقل الأمر، وحاجته إلى توطين النفس على الطاعة وتحمل مشقتها، فوصفه بقوله (لو عنيت به ....) والجملة الوصفية هنا وظيفتها التداولية هي التقرير، تقرير مشقة التكليف، وعظم الأمانة، وثقل القيام بأعبائها؛ ليقول من وراء ذلك –دون تصريح– شمروا عن سواعد الجد، واجتهدوا في العمل، وجاهدوا أنفسكم حق جهادها، هذه المقاصد هي عينها ما يلزم عن الجمل من استلزام حواري، وهكذا يصل إلى المخاطب أكثر مما يقال، وهو لب التداولية.

ويوظف التكرار (لو عنيت) لتأكيد غرضه وتقريره في النفوس، ويرتب عليه أمورا جساما في جواب الشرط (لانكدرت، لذابت، لانفطرت) ليدل على شدة التأثر بهذا الأمر وقوته المهولة التي تعيا بها الجمادات، فما بالك أيها الإنسان الضعيف!؟ إنك بحاجة شديدة إلى مساعدة نفسك ودرء المعاناة عنها.

وانظر إلى تعبيره بـ(ذوبان الجبال) كيف يصور ضعفها أمام هذا الأمر وقد عهدناها شامخة ثابتة أوتادا للأرض، لقد تبدل حالها مع هذا الأمر وصارت هشة وكأنها حفنة ملح أو نحوه قابلة للذوبان والتلاشي، هذه الاستعارة أدت دورا كبيرا في التأثير على السامع بانفعال نفسه بها، واقتناعه بما ترمي إليه من أن يصير المرء بعمله وطاعته أقوى من الجبال.

لقد كلفتم أمرا تخر له النجوم ساقطة متناثرة، وتذوب له الجبال، وتشقق له الأرض، نجد الجمل واحدة تلو الأخرى تؤكد الغرض المسوق له الكلام، وقد عمل الشرط فيها على حبكها وإحكام نسجها، ومثل عنصرا من عناصر التماسك والانسجام.

وقد استخدم في الشرط (لو) الامتناعية لامتناع أن يعنى بهذا الأمر شيء مما ذكر (النجوم ولا الجبال ولا الأرض) وأنه منوط بالإنسان وحسب.

(أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما؟) الاستفهام هنا عمل لغوي مباشر يؤدي عملا لغويا غير مباشر هو التقرير الذي يؤدي إلى استنهاض الهمم وإثارة العزائم للعمل الذي يؤدي إلى الجنة، ويُجنِّب النار، ليختر كل منكم أيها المخاطبون لنفسه، ولينظر أين يُنزِلها، والفعل التأثيري هو التوجه إلى سلوك يؤدي إلى الجنة، فليس الغرض أن يجيبوا: نعلم، أو لا نعلم، وإنما حفز الهمم للخيار الصائب، فالمرء حتما صائر إلى إحداهما، حيث لا منزلة بين المنزلتين؛ ليصير هذا هو الفعل الكلامي العام للخطبة كلها، وربما لجميع خطبه.

ويمكن هيكلة القياس في هذه الجملة هكذا:

أما تعلمون..

بلى نعلم

ن: اختاروا لأنفسكم.

وهكذا تنتهي الخطبة نهاية مفتوحة تاركة المخاطبين مشدوهي الحواس مفتوحي الأفواه ليرجعوا ويرعووا ويختاروا الأصوب اختيارا بالعمل لا بالتمني.

الإشاريات: (تزودوا، وكونوا، وتقسو، وتنقادوا، ولا يصبح، ولا يمسي) إشاريات زمانية مستقبلية، والمضارع المقترن بـ(لا) الناهية (لا يطولن) دلالته مستقبلية هي النصح والتحذير، والمضارع المقترن بـ(لا) النافية (لا يدري) إشارية زمانية مستقبلية أدت تقرير وصف الإنسان بأنه لا يأمن الموت في أية لحظة وعلى أية حال، فهو يدل على المستقبل المتجدد.

وعليه، فقد سيطر زمن المستقبل بما له من حركية تتطلع إلى التحول والتغيير من واقع الأمة من الانشغال بملذات الدنيا إلى التزود للآخرة والعمل لها، والآخرة مدار الحدث الكلامي يناسبها الزمن المستقبلي؛ ليتناغم زمن أفعال الخطاب مع زمن محوره.

الخطبة الحادية عشرة: في وصل الإخوان والقناعة والزهد

وروي أنه قال:

"من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب، فالزموها، الرزق مقسوم، فلن يعدو المؤمن ما قُسم له، فأجملوا في الطلب، فإن في القنوع[١] سعة، وبُلْغَةً، وكفافًا، إن أجل الدنيا في أعناقكم، وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن وكلٌّ أمواتٌ عن قريب، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق[٢]، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون: قد فرغ رحمه الله، وعاينتم تعجيل إخراجه، وقسمة تراثه، ووجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ[٣]، ولم يعمر الديار، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه مثقال ذرة في الموازين".[٤]

يبدأ الخطبة بداية مشوقة؛ إذ يستهلها بالشرط وما عطف عليه فيشوق إلى الجواب (فقد أحسن صلته) فيستقر في الذهن، ويتأكد لدى السامع، فما أحكم سبك الجملة وارتباط أجزائها بعضها ببعض!!

وقد عبر بالماضي (وصل) دون المضارع (يصل) للترغيب في المبادرة إلى المطلوب حتى كأنه صار واقعا.

---

(١) استعمل القُنُوعُ في الرِّضا (لسان العرب، مادة: قنع).

(٢) رأيت فلاناً يَسُوق سوقاً أي يَنْزِع نَزْعاً عند الموت (لسان العرب، مادة: سوق).

(٣) أهل المُحافظة على العَهْد والمُحاماةُ على الحُرَم (لسان العرب، مادة: حفظ).

(٤) تاريخ الطبري ٥٧١،٥٧٢/٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٤٢، وجمهرة خطب العرب، خطبة رقم ١٩٤، ٢١٠/٢.

ووسيلة الوصل هنا ليس مالا ولا عقارا يشق على النفس بذله، وإنما أمر بسيط لكن أثره عظيم، ذاك هو (النصيحة) التي جيء بها نكرة لتفيد التعظيم.

وقدم النصح في الدين على النظر في صلاح الدنيا لأهميته وترتب صلاح الدنيا عليه، فمن أقام دينه استقامت دنياه، والتعبير بـ(نظر له في صلاح دنياه دون (أصلح له دنياه) لا بد أن وراءه غرضا، هو أنه يُطلب من الدنيا الكفاف لا التمام، فيكفيه النظر في إصلاح شيء منها، لا يُكلَّف أن يبلغ تمام الإصلاح.

وتكرار (له) للتأكيد على أن يكون الرجل حريصا على نفع أخيه، وقد وظف رد العجز على الصدر في لفظين يجمعهما اشتقاق واحد هما (وصل) و(صلة) فاجتمع له التكرار والتأكيد والجناس والجرس والتنغيم الذي يقرع الآذان، فتجد المعاني طريقها إلى الأذهان.

وقد تكافأ الشرط والجزاء في الزمن؛ ليفيد سرعة بلوغه إحسان الصلة وأداء الحق، والجملة من الأفعال الكلامية التقريرية.

ويمكن هيكلة القياس فيما سبق هكذا:

وصل أخاه بنصيحة له في دينه.

نظر له في صلاح دنياه.

ن: أحسن صلته.

وقد استدعى الحال وصل الجملة الثانية بالأولى، فعطفت بالواو لاتفاقهما في النوع مع وجود الجامع بينهما لما هو معلوم لدى السامع من أن صلاح حال المرء إنما يكون بهما معا (الدين والدنيا)، وحسَّن الوصلَ اتفاقُهما في الصياغة الفعلية الماضوية.

وانظر إلى إضافة الصفة إلى الموصوف في (واجب حقه) حيث تفيد تأكيد أنه قد أدى الحق الواجب تمام الأداء.

وفي قوله (فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب، فالزموها) يعظهم بتقوى الله ويحثهم على قبول النصح، وينصحهم بلزوم الموعظة (اتقوا، اقبلوا، الزموا) فالعمل اللغوي المباشر هو الأمر بالتقوى والقبول واللزوم، يؤدي عملا غير مباشر هو الوعظ والحث والنصح بما يحقق نفعهم، ويؤمنهم العواقب، وهو ذاته الغرض البلاغي للأمر، فلا فرق بين البلاغة والتداولية، بل البلاغة سابقة.

وتراه يتوخى تعظيم النصيحة والموعظة؛ إذ يستعمل فيهما فنية التنكير، وإبقاء لأثر النصح في آذان السامعين وظف السجع المتوازي (اقبلوها، الزموها).

ونسبة الإنجاء إلى الموعظة مجاز عقلي علاقته السببية يؤكد عمق أثر الموعظة، وشدة تأثيرها؛ إذ تكون سبب النجاة المؤدي إليها، ومن دونها الهلكة. واستعماله للوصف (اسم الفاعل: منجية) آلية لغوية للحجاج، صنفت الموعظة بأنها من النوع الواجب الاتباع لتتحقق النجاة، حيث وقع اسم الفاعل صفة للموعظة " وتعد الصفة من الأدوات التي تمثل حجة للمرسل في خطابه، وذلك بإطلاقه لنعت معين في سبيل إقناع المرسل إليه" [1] فهو يحشد لموعظته ما يكون سببا في إقناعها، ولزوم السامعين إياها.

وتمثل الجملتان حجتين للقبول يمكن ترتيبهما على السلم الحجاجي:

لزوم النصح

- موعظة منجية في العواقب.
- نصيحة لكم في دينكم.

١) استراتيجيات الخطاب، الشهري، ص٤٨٦.

فالجملة الثانية أقوى حجاجيا من الأولى؛ لكون الموعظة تحقق النجاة في العواقب، لذا رتب عليها قوله (فالزموها) الأقوى مما رتب على الأولى (اقبلوها) فلزوم الشيء أدل على التمسك به وعدم الانفكاك عنه أو مفارقته من مجرد القبول.

ثم يتبع بقوله (الرزق مقسوم، فلن يعدو المؤمن ما قسم له، فأجملوا في الطلب، فإن في القنوع سعة، وبُلْغَةً، وكفافًا) أي الرزق مقسوم من الأزل، وكل ينال ما قسم له، لن يعدوه إلى غيره، فلا تبالغوا في طلبه، واقنعوا بما قُسم لكم، ففيه الكفاف والبلغة والسعة.

وانظر إلى الجملة الحاسمة التي لا جدال فيها ولا نقاش (الرزق مقسوم) والتعبير باسم المفعول يدل على صرامة الفاعل، فالقسمة لا تراجع فيها ولا زيادة ولا نقصان، أي أن الأمر محسوم.

ومعنا مقدمتان ونتيجة:

الرزق مقسوم

لن يعدو المؤمن ما قسم له

ن: أجملوا في الطلب.

فلن ينال أحد أكثر مما قسم له مهما اجتهد في الطلب وألح عليه.

وترى الجمل قد بنيت على افتراض مسبق يتمثل في أنهم جاءوه يطلبون العطايا والهبات على عادة ما يفعلون مع الخلفاء قبله مما هو مبني على جد الناس في طلب الدنيا وتكالبهم عليها.

ويزين القنوع ويحببه إلى الناس بقوله (فإن في القنوع سعة، وبُلْغَةً، وكفافًا) جامعا له المزايا الثلاثة مقدما المسند (في القنوع) على المسند إليه (سعة) تشويقا إليه، وقد جعل القنوع وعاء حواها جميعا على سبيل الاستعارة

المكنية التي تعد آلية بلاغية للحجاج تعمل على انفعال نفس المتلقي بها، والتأثير في قناعاته، وتوجيه سلوكياته.

وقد حوت الجملة محسنا بديعيا هو مراعاة النظير بين (السعة) و(البلغة) و(الكفاف) وقد أطمع السامع في القنوع وحببه إليه بترتيب ثلاثتها؛ إذ قدم (السعة) الأمر المحبب إلى النفوس، ثم ثنى بما هو دونه (البلغة) ثم أردف (الكفاف) أقلها رتبة، إذن قدم ما يغري السامع بالقنوع ويجعله يقبل عليه سالكا إياه عن طريق بنية تقديم بعض المتعاطفات على بعض.

وقد ساند ذلك استخدام فنية التنكير في ثلاثتها الذي أفاد تعظيمها وامتدادها، والجملة فعل كلامي تقريري يعمل على إقناع السامع عن طريق (درجة الشدة المتضمنة في القول) على حد قول التداوليين؛ إذ أكد الجملة بـ(إن) وتقديم ما حقه التأخير (المسند) على (المسند إليه).

ويتبع التعليل تعليلا آخر (إن أجل الدنيا في أعناقكم) أي الدنيا فانية عما قريب، عمرها قصير، فاحتياجاتكم فيها محدودة، فعلام طلب ما لا يُحتاج إليه؟ إذن الأَوْلى لزوم القناعة، فالجملة حجة للإجمال في طلب الرزق مؤكدة بـ(إن) مدعمة بصورة الكناية كآلية بلاغية للحجاج فكونها (في الأعناق) كناية عن القرب، فقد أعطى المعنى وبصحبته الدليل.

والجملة قد بنيت على افتراض مسبق هو تسويف الناس بالتوبة اعتقادا في طول الأجل.

ويزيد في الاحتجاج على نبذ الدنيا فيقول (وجهنم أمامكم، وما ترون ذاهب، وما مضى فكأن لم يكن وكلٌّ أمواتٌ عن قريب) أي إذا أسرفتم في طلب الدنيا والمال فجهنم تنتظركم، يخوفهم عاقبة الطمع، فتلك حجة للزوم القناعة، أي الزموا القناعة توقيا للنار.

(وما ترون ذاهب) كل متاع الدنيا إلى زوال، فقليله وكثيره سواء، إذن لزوم القناعة أولى.

(ما مضى فكأن لم يكن) تعبير عن قصر الدنيا، وسرعة نسيان ما مضى منها، فالجملة كناية عن سرعة الانقضاء والنسيان، وأن مآل ما بقي من الدنيا مآل ما مضى، فلا فائدة في التعويل عليه وادخار المال واقتناء المتاع له، إذن يؤول المقصد إلى لزوم القناعة أيضا المقصد العام للخطبة.

(وكلٌّ أمواتٌ عن قريب) تاركين متاع الدنيا وزخرفها، فعلام الجد في طلبه؟ وفيم التنافس؟

وقد اختصر الأحياء جميعا في كلمة (كل) إذ حذف المضاف إليه وعوض عنه التنوين، فأحياء الكون كله أموات عن قريب، وقد أخبر عن الشيء بضده عن (الأحياء) بـ(أموات) لتتضح مفارقة تبدل الحال، وجاء الحكم صارما قاطعا بلا تسويف، مقرونا بالقرب، إذ عبر بالاسم (أموات) دون الفعل، فلم يقل (سوف يموتون) أو (يموتون) وإنما أراد تحقق الخبر وثبوته وكأنه قد كان بالفعل.

ثم أتبع بما يترتب على الموت (وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق ....) عاينتم حالات الميت وهو في النزع الأخير وبعد فراغه، وحوله أهله ينظرون إليه لا يملكون من أمره شيئا، إلا أن يدعوا له بالرحمة، وشاهدتم رأي العين تعجيل إخراجه ودفنه، وكيف يسارع القوم إلى اقتسام ميراثه، وقد فُقِد وجهه، ونُسِي ذكره، وعزف الناس عن داره وهجروا بابه وكأنهم لم يكونوا أصدقاءه، بل لم يخالطوه، وكأنه لم يكن في هذه الدار، فلا تمسكوا بالدنيا، ولا تجدوا في طلابها، واعملوا لتوقي هول يوم لا يحقر فيه شيء من العمل الصالح وإن قل.

وانظر إلى تعبيره بالمضارع (يسوق) كيف يستحضر صورة الإنسان وهو يعاني نزع الروح، ومبلغ المشقة فيه، وضعف الإنسان في هذا الموقف، والفعل يجسد -أيضا- خروج الروح من الجسد شيئا فشيئا.

(والقوم حوله يقولون: قد فرغ رحمه الله) لا يملكون إلا القول، والجملة الأولى (قد فرغ) غرضها التحسر عليه، والثانية (رحمه الله) الدعاء له، والبلاغة هنا تغني عن القول بأنهما فعلان كلاميان فعلاهما الإنجازيان التحسر والدعاء.

وقد فصل بينهما لاختلافهما خبرا وإنشاء من حيث المعنى؛ إذ الأولى خبرية، والثانية إنشائية معنى قصد بها الدعاء.

وللجملة استلزام حواري مؤداه أن القوم لا يملكون له شيئا، أولئكم الأهل والذرية والأحباب من كانوا عزوته ومناصريه كفوا أيديهم، ولم يعد بإمكانهم دفع شيء عنه، فقط يقولون ....

وقد عبر باسم المفعول (مفقود، ومنسي، ومهجور) دلالة على كثرة الفاعل؛ فلتعذر الإحاطة به لجأ إلى اسم المفعول ليدل على ما آل إليه حال المرء بعد موته، وكأنه لم يكن، "ويصنف اسم المفعول على أنه من الأوصاف الحجاجية" [1] فقد دل على تحقق الفقد والنسيان والهجر مما لا يحاط به كثرة، جميع ما كان له في دنياه من حظوة وأنس وأحباب قد فقد، فلتتوجه أيها المرء إلى ما يبقى ويخلد وهو الدار الآخرة، ولتنفض يديك من متاع الحياة الدنيا، والجمل مبنية على افتراض مسبق: كان وجهه حاضرا، وكان مذكورا، وكان بابه مطروقا.

(١) استراتيجيات الخطاب، ص ٤٨٩.

(كأن لم يخالط ... ولم يعمر ...) يستوي حاله -على ما كان عليه من كثرة الأصحاب وإعمار الدنيا- مع حال من لم يخالط أحدا ولم يعمر دارا، فالغرض هنا هو التسوية، وهو الاستلزام الحواري الذي تقول به التداولية.

(فاتقوا) فعل أمر قوته الإنجازية هي التحذير والترهيب من أهوال القيامة، والحث على اتقائها بالعمل الصالح، وعدم احتقار شيء منه وإن صغر.

و(يوم) نكرة تفيد التهويل والتعظيم، ثم يصفه بقوله (لا يحقر...) لتخصيصه؛ فالجملة الوصفية من تقريريات (سيرل) وبناء الفعل للمجهول يدل على إنكار أن يكون له فاعل، وبالتالي لا يمكن أن يقع الفعل على العمل القليل ما دام على الطريق القويم، وتنكير (ذرة) للتقليل، أي أقل شيء من العمل الصالح يثقل الموازين، ويؤثر في مآل صاحبه، والجملة مبنية على افتراض استصغار الناس لبعض الأعمال، وتهاونهم في طلبها.

وهي عمل لغوي تقريري، فعله التأثيري هو دفع المتلقي إلى أن ينشط في العمل الصالح صغيره، وكبيره، عظيمه، وضئيله.

وقد شاعت الإشاريات الشخصية التي تدل على المرسَل إليه، حيث ضمير الغائب المستتر في (وصل، ونظر، وأحسن، وأدى) و(واو) الجماعة في (اتقوا، واقبلوها، والزموها، وأجملوا، وترون) و(كاف) الخطاب الموصولة بـ(ميم) الجمع في (لكم، ودينكم، وأعناقكم، وأمامكم) و(تاء) الخطاب في (رأيتم)

وترجع دلالتها التداولية إلى اهتمامه بالمقصودين بالخطاب، وحرصه على حضورهم، وجذب انتباههم، وجعلهم في مواجهته؛ إذ المواجهة أحرى لقبول النصح، وعليه فقد شكل جمهور المخاطبين الخطاب، ولا يقتصر ما تشير إليه هذه الضمائر على حاضري الخطبة بل تشمل كل مسلم في كل مصر من أمصار الدولة الإسلامية في عهده.

ويلاحظ أنه قد زوى ما يشير إلى شخصه في صورة إنكار لذاته، وإيثار للآخرين، ونبذ للتعالي والاعتداد بالنفس، وهذا أدعى لاستمالة المخاطبين وإقناعهم بما يريد.

أما الإشاريات الزمانية: فتتضح إشارية الزمن الكوني في قوله (أجل الدنيا في أعناقكم) حيث يشير إلى حتمية انتهاء الدنيا وقرب أمدها، وضرورة الحد من متاعها، واتخاذ الذخر لما بعدها.

وفي قوله (فاتقوا هول يوم) المراد يوم القيامة، واستعمال الإشارية الزمانية هنا فيه دلالة على شدة الحاجة إلى العمل الصالح، ولو كان أقل ما يمكن توقيا لهول ذلك اليوم.

وأما الزمن النحوي في صيغ الأفعال، فقد استخدم الماضي في فعل الشرط وجوابه (من وصل أخاه ..... فقد أحسن) ودلالته مستقبلية في الأصل ذلك أن الماضي في مقام الشرط تتحول دلالته إلى المستقبل بقصد الترغيب في الصلة؛ لإفادة المبادرة إلى الامتثال ليصبح المطلوب واقعا.

والماضي في (رأيتم، وذاق، وفرغ، وعاين) يدل على التحقق، والفعل المضارع في (لن يعدو) دلالته مستقبلية؛ إذ يوحي بأنه مهما تقادم العهد ومضى الزمن فليس للمرء من الرزق إلا ما قسم له، وفي (ترون) دلالته حالية، أي ما ترونه ماثلا بين أيديكم الآن مآله إلى الذهاب، و(لم) مع الفعل المضارع في (لم يكن، ولم يخالط، ولم يعمر) تقلب دلالته إلى الماضي المنقطع البعيد[1] أي كأن آثاره –فور موته– قد محيت منذ زمن بعيد.

(١) اتجاهات التحليل الزمني في الدراسات اللغوية، محمد عبد الرحمن الريحاني، دار قباء– القاهرة، ص٩٢.

واسم الفاعل في (موعظة منجية في العواقب) و(ما ترون ذاهب) دلالته مستقبلية، فالأول فيه تأكيد لنفع الموعظة في العواقب، والثاني يؤكد حتمية ذهاب متاع الدنيا، وزواله مستقبلا وإن طال التمتع به.

واسم المفعول في قوله (الرزق مقسوم) دلالته المضي الدال على القطع والتأكيد، وانعدام الحيلة فيه من جهة، وعدم فواته من جهة أخرى، وفي (مفقود، ومنسي، ومهجور) يتحول الزمن إلى الدلالة المستقبلية؛ لينتقل بنا المرسل من زمن الحال الذي يموج بالمتع واللذات والأنس بالأصحاب والأحباب إلى زمن المستقبل الذي يسوده الفقد والنسيان والهجر والزوال؛ حثا للمرء على تحصيل ما يؤنس وحشته المستقبلية وهو العمل الصالح، والتخلي عن التعلق بأسباب الدنيا.

وهكذا تنوعت دلالات الزمن بين الماضي والحال والمستقبل؛ لتعطي للنص حركية تسعى إلى التغيير، وتعمل على التحفيز على السلوك الذي يسعى إليه المرسل من عدم التشبث بالدنيا، والحذر من المبالغة في طلب نعيمها، والقناعة منها بالكفاف، والحث على تحصيل ما يبقى، ويقي أهوال يوم القيامة.

وأما الإشاريات المكانية فنجدها في قوله (في أعناقكم) و(أمامكم) قد وظفت للدلالة على القرب.

الخطبة الثانية عشرة: في خطورة العمل بلا علم، والحث على الصبر

وقال: "من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه، والرضا قليل، ومعول المؤمن الصبر، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه، فأعاضه مما انتزع منه الصبر، إلا كان ما أعاضه خيرًا مما انتزع منه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[1]

في هذه الخطبة يسدي مجموعة من الحكم مستخدما أسلوب الشرط الذي يقوي العلاقة بين طرفيه ويوثقها، ويمثل عنصرا من عناصر تماسك النص والتحامه (من عمل على غير علم ...) يبين سوء عاقبة العمل بلا علم، فيرتب عليه قوله (كان ما يفسد أكثر مما يصلح) وفي هذا بعد تداولي؛ إذ يبغي حث السامع على تحقيق ركيزة علمية يقينية يبني عليها عمله ليكون مثمرا، وإلا صار إلى الفساد والخراب، وقد وظف التقابل بين الإفساد والإصلاح توظيفا سديدا، ليتضح قبح الأول للمخاطب فيجتنبه.

وفي الشرط الثاني يشير إلى استخفاف الناس بالكلام، وعدم التعويل عليه في الذنب، وأنهم يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه) فالكلام آفة تكب الناس في النار على مناخيرهم إذا استعمل استعمالا سيئا، فليحفظ المرء عليه لسانه؛ فإن آفاته عديدة، وعدم الاعتبار بما يودي إليه يكثر الذنوب، الأمر الذي ينبغي الحرص على السلامة منه.

وجملة (والرضا قليل) من إيجاز القصر، جملة من كلمتين تصف حال الناس، وما هم عليه من السخط وعدم القناعة، والتذمر لما ينزل بهم من مصيبة

---

(١) من الآية ١٠سورة الزمر، والخطبة في تاريخ الطبري ٥٧٢/٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٤٩، والجمهرة، خطبة رقم ١٩٥، ٢١٠/٢.

أو ضيق رزق أو نحوه، والطمع في تحصيل المال والمتاع، والبعد التداولي للجملة إقناع الناس بلزوم الرضا والقناعة.

ويرغب في الصبر بقوله (ومعول المؤمن الصبر) إذ يلزم عنها استلزام حواري هو أن من لا يعول على الصبر ليس بكامل الإيمان.

ويمكن الاستغناء عن القول بالاستلزام الحواري بأن نقول: إن الغرض البلاغي للخبر هو الترغيب في الصبر والحث على لزومه والتعويل عليه، وقد صيغت الجملة كحكمة صالحة لكل زمان ومكان.

(وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ....) جملة مركبة طويلة تعضد الجملة السابقة وتدعمها وتذيلها وتؤكد غرضها من الترغيب في الصبر، فالصبر المعوِّض عن النعمة المنتزعة خير منها؛ ذلك أن أجر الصابرين عطاء واف ممتد بغير حساب.

وقد جاءت الجملة على سبيل الحصر الذي يمنع أن يشذ عن الحكم المضمن فيها شيء، وأيد ذلك بالتعبير بالنكرتين (عبد، ونعمة) الذي أفاد الشمول، فالحكم يشمل كل عبد وكل نعمة، أيا كان حال العبد، وعلى أي وصف كانت النعمة وأيا كان نوعها، أية نعمة انتزعت من أي عبد فعوَض الصبر كان الصبر خيرا له، ويبدو أن الجملة تشير إلى الحدث الأكبر في خلافة عمر وهو رد العطايا إلى بيت المال؛ فالبعد التداولي هو إقناع الناس برد العطايا.

ثم علل الحكم بالآية الكريمة، فأقام الدليل والحجة القاطعة على صحة ما قدم من حكم، فالآية حجة لها سلطانها الذي لا يُرَد، وبذا قد تضمنت الخطبة احتجاجا بالشاهد القرآني، ليقنع الناس بالسلطة العليا للخطاب الديني بعظم أجرهم على الصبر على نزع العطايا منهم.

ويمكن هيكلة القياس هكذا:

الصبر خير من النعمة المنتزعة

أجره بغير حساب

ن: الزموا الصبر.

و(ما) الموصولة في جملة (كان ما أعاضه خيرا) لتعظيم الصبر وتفخيم شأنه.

ومن الإشاريات: (من عمل على غير علم) إشارية مستقبلية لأن الماضي في سياق الشرط، و(لم يعد) أفاد السياق أنه إشارية مستقبلية أيضا، فالأفعال في الخطبة تدل على الزمن الممتد.

الخطبة الثالثة عشرة: في نبذه الدنيا حتى أبكى الناس

وحدث شبيب بن شيبة، عن أبي عبد الملك قال: كنت من حرس الخلفاء قبل عمر، فكنا نقوم لهم، ونبدؤهم بالسلام، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه– في يوم عيد، وعليه قميص كتان، وعمامة على قلنسوة لاطئة[1]، فمثلنا بين يديه، وسلمنا عليه، فقال: مه أنتم جماعة وأنا واحد، السلام علي، والرد عليكم، وسَلَّمَ فرددْنا، وقربت له دابته فأعرض عنها، ومشى ومشينا، حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال:

"وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا، فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم"، ثم قال: "ما لي وللدنيا؟ أم ما لي ولها؟ وتكلم فأرق، حتى بكى الناس جميعًا، يمينًا وشمالا"، ثم قطع كلامه ونزل، فدنا منه رجاء بن حيوة، فقال له: يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه، فقال: يا رجاء إني أكره المباهاة".[2]

بداية كلام الراوي تدل على أن الحال اختلف في عهد عمر عمن كان قبله من الخلفاء، كان الحرس يقومون لهم ويبدؤونهم بالسلام فلما فعلوا ذلك معه أنكره عليهم قائلا:

(مه أنتم جماعة وأنا واحد) انتقد فعلهم، وأوضح لهم بتواضعه الجم وخلقه الرفيع أن السلام عليه؛ لأنه واحد وعليهم الرد؛ لأنهم جماعة (السلام علي، والرد عليكم) إنه لا يرى لنفسه أفضلية عليهم حتى تبدأه الجماعة بالسلام إنما هو واحد من الناس.

---

(١) لاطِئةٌ: لازِقةٌ (لسان العرب، مادة: لطأ).

(٢) العقد الفريد ٣/ ٧٤، الجمهرة، خطبة رقم ١٩٦، ٢/٢١١.

وجاءت جملته الأولى وكأنه ينهرهم عن الفعل (بدؤهم إياه بالسلام) مستخدما اسم الفعل (مه) أي كفوا، ثم أورد سبب طلب الكف مغنيا إياهم عن السؤال بقوله (أنتم جماعة) إذن راعى المخاطب وما يمكن أن يدور بخاطره، فقدم جواب السؤال، لذا فصلت الجملة عن سابقتها، وهو ما يعرف بشبه كمال الاتصال، وهذا ملحظ تداولي قد فطن إليه عبد القاهر والسكاكي وغيرهما.

وعبر بالجملتين الاسميتين (السلام علي، والرد عليكم) ليفيد الثبوت والدوام، أي لا تبدأوني بالسلام مرة أخرى، فهو عليَّ دائما.

ويؤكد تواضعه للحرس بإعراضه عن الدابة ومشيه معهم حتى وصل المنبر.

هذا هو السياق المقامي (الخارجي) قبل الخطبة.

ثم يبدأ نص الخطبة بالفعل الماضي (وددت) ليدل على تعلقه بمطلوبه من زمن بعيد مستغرقا الزمن الحالي باقيا للمستقبل، هذا المطلوب أن يجتمع الأغنياء فيردوا من أموالهم على الفقراء حتى يستووا بهم.

ويلاحظ أنه يستعمل استراتيجية معينة لاستمالة الناس ؛ إذ لم يأمرهم مباشرة، لم يقل: أيها الأغنياء ردوا من أموالكم على الفقراء، وإنما قال إن هذا أمر مودود، ويلاحظ انتقاله من ضمير المفرد إلى ضمير الجمع في قوله (حتى نستوي نحن بهم) ليفيد اندماجه مع سائر الأغنياء، وتكافله معهم في هذا العمل، أي أنه لا يريد أمر الناس دونه، وإنما يريده لنفسه قبلهم، وقد أكد ذلك بقوله (وأكون أنا أولهم) إنه يقدم نفسه منذ البداية شخصية متواضعة بدءا من اللباس ونهر الحرس أن يبدأوه بالسلام، ومرافقته لهم في المشي، وإعراضه عن الدابة، وهنا يريد تسوية عيشه بعيش الناس بأن يكون أول من يردّ من ماله على

الفقراء، وقد حذف مفعول الفعل (ردوا) قصد العموم ليشمل كل شيء، ولا يقيد بمعطى بعينه؛ ليرد الأغنياء نقودا، طعاما، لباسا، أرضا، منازل، دواب .....

إنه لا يكتفي بأن يعطي الأغنياء شيئا من أموالهم للفقراء، بل يريد تساوي الفريقين حتى يستوي عيش الخليفة بعيش سائر الناس، فلا يكون لأحد أفضلية على أحد.

ثم قال (مالي وللدنيا؟ أم مالي ولها؟) وهنا يؤدي الاستفهام فعلا كلاميا هو التعجب وإنكار أن يكون له مع الدنيا شأن، أو بها تعلّق، وهو ما يعبر عنه في البلاغة العربية بالغرض البلاغي أو المعنى المجازي للاستفهام.

يقول الراوي (وتكلم فأرق، حتى بكى الناس جميعا، يمينا وشمالا) ولم يرد نص ما تكلم به، وسياق الكلام يعطي دلالة أن كلامه كان في نبذ الدنيا والتعلق بالآخرة، يقول الراوي (ثم قطع كلامه ونزل، فدنا منه رجاء بن حيوة، فقال له: يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه، فقال: يا رجاء إني أكره المباهاة)

في الحوار الذي دار بينه وبين رجاء بن حيوة، رجاء يلومه على قطع كلامه والناس أحوج ما كانوا إليه، فيأتي جوابه مبينا السبب مؤكدا بـ(إن) ليدل على عمق قناعته بمضمونه، وليزيل ما في نفس رجاء من تساؤل عن سبب القطع، ثم جاء خبر (إن) جملة فعلية، أي قدم المسند إليه على الخبر الفعلي(أكره) ليفيد تقوية الحكم وتوكيده، وهو ما يعد من قسم التقريريات في الأفعال الكلامية عند (سيرل).

والجملة الأخيرة مبنية على افتراض مسبق هو أن إبكاءه الناس بالكلام الرقيق مظنة المباهاة؛ لذا قطع كلامه ونزل.

وقد غاب بقية نص الخطبة، لكن حضر سياقه الخارجي بما يتيح فرصة لتحليل الموقف أكثر من النص الذي جاء مبتورا، وبالتالي لا وقوف لنا على كلامه الذي كان له هذا التأثير في جمهور المخاطبين حتى وصل بهم إلى البكاء الذي شملهم جميعا، لكن هذا يقطع بقدرة المرسل الخطابية وبلاغته الانفعالية الإقناعية وامتلاكه قلوب المخاطبين.

وقد تضمنت الخطبة إشاريات شخصية مثل إشارية المخاطبين الضمير (أنتم) لتعظيم المخاطبين وحفظ أقدارهم، ثم قرنها بإشارية إلى شخص المرسل بقوله (وأنا واحد) ليدل على تواضعه لهم.

وقد كثرت الإشارة إلى شخص المرسل حيث ضمائر المتكلم في (وددت، نستوي نحن، أكون أنا، مالي، إني) ليقدم القدوة للمخاطبين حتى يتأسوا به.

قول الراوي (خرج علينا في يوم عيد ...) إشارية زمانية تدل على تواضع لباسه في هذا اليوم الذي يلبس فيه الناس الجديد الحسن، وعلى الرغم من الصيغة الماضية للفعلين (وددت، ردوا) إلا أن هما بمعونة السياق يدلان على الزمن الممتد، وللفعل (نستوي) الدلالة المستقبلية، والفعل (أكره) حال ممتد إلى المستقبل، فهو يكره المباهاة الآن وتستمر كراهيته لها مستقبلا.

ومن الإشاريات المكانية في الخطبة (بين يديه) حيث تحمل الإشارية هنا معنى إعلان الطاعة، و(المنبر) يحمل معاني الوعظ والتوعية والتنوير الذي يصدر ممن هو أهل للتلقي بالقبول لما له من سلطة سياسية ودينية، وقول الراوي (يمينا وشمالا) إشارية مكانية تؤكد شمول البكاء للناس جميعا مما يوحي بعمق تأثير الخطبة فيهم، وقدرة الخطيب على أن يلين قلوبهم.

الخطبة الرابعة عشرة: تذكيرٌ بالموت وحرصٌ على كفاية الرعية

وخطب بخناصرة[١] خطبة لم يخطب بعدها حتى مات! رحمه الله تعالى، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

"أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تُتركوا سدًى، وإن لكم معادًا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحُرِمَ الجنةَ التي عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف ربه، وباع قليلا بكثير وفانيًا بباق، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، كذلك حتى تُردوا إلى خير الوارثين، ثم أنتم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله، قد قضى نحبه[٢] وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع[٣] من الأرض، ثم تدعونه غير مُوسَدٍ ولا مُمهَدٍ، قد خلع الأسبابَ، وفارقَ الأحبابَ، وواجه الحسابَ، مرتَهَنًا بعمله، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قَدَّمَ، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله لي ولكم، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ولحمتي[٤] الذين يَلُونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم، وايم الله إني لو أردتُ غير هذا من عيش أو غضارة[٥] لكان اللسان مني ناطقا ذلولا، عالما بأسبابه، لكنه مضى من الله كتاب ناطق

---

(١) بليدة من أعمال حلب تحاذي قنّسرين نحو البادية (معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط٢ دار صادر– بيروت ١٩٩٥ م، ٢/٣٩٠).

(٢) أجله (لسان العرب، مادة: نحب).

(٣) شقّ (لسان العرب، مادة: صدع).

(٤) اللُّحْمَةُ بالضم القرابة (لسان العرب / لحم).

(٥) الغَضارة النّعْمة والسَّعة في العيش (لسان العرب / غضر)

وسنة عادلة، دلَّ فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته"، ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه، ثم نزل، فلم يُرَ على تلك الأعواد[1] حتى قبضه الله.[2]

يبدأ بالنداء لتنبيه الناس لما يلقى بعد لأهميته، والتداوليون يقولون النداء فعل كلامي قوته الإنجازية هي الإقبال.

وجملة (إنكم لم تخلقوا عبثا) جملة خبرية مؤكدة نزل الناس فيها منزلة من يظن أنه خلق عبثا؛ ذلك لما بدا على الناس من الانشغال بالدنيا عن الطاعات، وكأن لا حساب بعدها؛ إذ انشغلوا بالإقبال على الدنيا عما خلقوا لأجله وهو العبادة.

وتمثل الجملة فعلا كلاميا من تقريريات (سيرل) فالتأكيد يقرر الحكم.

ويتبع بقوله (وإن لكم معادا) وهنا يؤكد الجملة بـ(إن) وتقديم ما حقه التأخير، وكأن الناس ينكرون القيامة، أي أن المخاطبين نزلوا منزلة من ينكر يوم المعاد لما بدا عليهم من علامات الإنكار، إذ لم يحسنوا الاستعداد لهذا اليوم، وتنكير (معاد) للتعظيم والتهويل.

ثم يصف المعاد بقوله (يحكم الله فيه بينكم) والجملة من تقريريات (سيرل) لأنها وقعت صفة لنكرة، وأسند الفعل إلى لفظ الجلالة (الله) لتربية المهابة؛ ليخجل المرء من وقوفه بين يدي الله عاصيا خائبا.

---

(١) الأعواد: المنبر، جاء في لسان العرب "العودانِ مِنْبَرُ النبي – صلى الله عليه وسلم – وعَصاه" مادة (عود).

(٢) تاريخ الطبري ٥٧٠،٥٧١/٦، والبيان والتبيين ٢/ ٨٢، والعقد الفريد ٣/ ٧٥، والأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه/ الأستاذ عَبد أ. علي مهنا، ط٢ دار الفكر (د.ت). ٩/ ٣٠٥،٣٠٦، وعيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية –بيروت ١٤١٨ هـ م٢: ص٢٦٨ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٥٩، ولابن عبد الحكم ص٤٢ و١١٦، الجمهرة، خطبة رقم ١٩٧، ٢/٢١١.

(فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء) الجملة خبرية أريد بها إنشاء الدعاء بالخيبة والخسران على من لم يحرز له مكانا في رحمة الله على سعتها، فالجملة فعل كلامي قوته الإنجازية الدعاء -على قول التداوليين- والأول يغني عنه.

والمسند إليه معرف بالموصولية لتقرير غرض استحقاقه الخيبة والخسران من خلال الصلة (خرج من رحمة الله) وكأنه خرج طواعية لعدم حفاظه على مكانه من تلك الرحمة الواسعة، وهذا يغني عن القول بأن جملة الصلة من تقريريات (سيرل) فقد جاء في البلاغة العرب من أغراض التعريف بالموصولية تقرير الغرض المسوق له الكلام.

ويضم إلى الجملة السابقة قوله (وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض) لالتقائهما؛ فالحرمان من الجنة يترتب على الخروج من الرحمة، إذ الجنة مكان الرحمة، فأية خيبة وأي خسران!!!

(واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف ربه) انظر إلى براعته في صياغة الجملة، كيف ولد من الخوف أمانا، ولا عجب فالخوف هنا هو خوف الله تعالى، ورعاية محارمه، والوقوف عند حدوده، فإذا كان المرء وجلا من ربه في دنياه نعم بالأمان غدا في أخراه.

(وباع قليلا بكثير) المقصود بالقليل متاع الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [1] (وفانيا بباق) ترغيبا في الآخرة يصف ما يخصها بالكثرة والبقاء، وفي المقابل ما يخص الدنيا بالقلة والفناء، فبضدها تتمايز الأشياء، ولبنية الطباق تأثير كبير على المتلقي في إقناعه بالآخرة والعمل لها فهي الحياة الباقية الدائمة المتمتّع فيها بالنعيم المقيم.

(١) التوبة ٣٨.

(ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين) يستعمل الاستفهام بما له من حركية تضفي على ذهن السامع نشاطا، وتجعله يعود إلى نفسه ويفكر في أمره حتى يجد الجواب، وغرض الاستفهام التقرير، أي أن يجيب المخاطبون (بلى، نحن في أسلاب الهالكين) ليقتنعوا بأنهم سيؤولون إلى ما آل إليه أسلافهم، ويلاحظ أنه لم يقل (ثياب السابقين) أو (الماضين) وإنما اختار الأسلاب المضافة إلى الهالكين؛ ليُقنِع المخاطبين بأن ما بين أيديهم مآله إلى غيرهم، وسيهلكون مثل أسلافهم، فيجعلوا الموت على ذكر منهم، ولا يغفلوا عن العمل لما بعده، فاسم الفاعل (الهالكين) آلية لغوية من آليات الحجاج.

ولم يكتف بذلك، بل أكده بما بعده؛ إذ ذيل بقوله (وسيخلفها من بعدكم الباقون) وقد استعمل (السين) الدالة على المستقبل القريب دون (سوف) التي فيها التراخي للدلالة على قرب الآجال الذي يستوجب إحسان العمل قبل فوات الأوان.
والأمر تباعا (كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين) حتى تبلغوا المثول بين يدي الله الذي يرث الأرض ومن عليها.

(ثم أنتم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله) أي أن الأمر مجرب عيانا يوميا في الغدو والرواح تشيعون الموتى إلى بارئهم، فلستم في حاجة إلى التذكير بالموت؛ إذ الأدلة مشاهدة، فالفعل (تشيعون) مع ما اقترن به من إشاريات زمانية (يوم، غاديا، رائحا) أفاد التجدد والاستمرار مستقبلا.

وقد استعمل تركيبا يفيد تقوية الحكم وتوكيده، إذ قدم المسند إليه (أنتم) على الخبر الفعلي (تشيعون) فالجملة فعل كلامي تقريري.

(ثم تغيبونه في صدع من الأرض) فمآل المرء شق في الأرض، يغيب فيه أثره، وينقطع ذكره، ويخلو فيه وحده، بعد أن كان يسكن القصور الواسعة، ويسامر الأحباب ويأنس بهم، فالصيغ هنا إشارية مكانية، تحمل معنى الفناء

وغياب الأثر (ثم يدعونه غير موسد ولا ممهد) بلا وسادة ولا فراش، وكان أمس يفترش الحرير، ويتوسد ريش النعام، انظروا إلام يصير!!

(قد خلع الأسبابَ، وفارقَ الأحبابَ، وواجه الحسابَ، مرتَهَنًا بعمله، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدم) أي ترك أسباب الحياة، وهنا يحاج بالصورة البيانية؛ إذ شبه عرض الحياة وأسبابها بالثياب، ثم حذف الثياب ورمز إليها بشيء من لوازمها وهو (خلع) على سبيل الاستعارة المكنية؛ ليدل على تجرد المرء من أسباب الحياة تجردا كاملا وتخليه عنها كما يتجرد من ثيابه.

وتتوالى الجمل التي تمثل حججا على أن جميع ما كان له في الدنيا لن ينفعه إلا العمل (وواجه الحساب مرتهنا بعمله) لن يخرج من الدنيا إلا بعمله (غنيا عما ترك) من متاع الدنيا الذي قضى عمره يجمعه (فقيرا إلى ما قدم) محتاجا إلى العمل الصالح أشد ما تكون الحاجة، وقد وظف المرسل المقابلة توظيفا سديدا ليقارن بين الحالين ويوضحهما ، فالتضاد يقوي المعنى ويوضحه، فما تركه قد نفض منه يديه ولا حاجة إليه، وما قدم من عمل هو الحاضر الباقي الذي تمس الحاجة إليه، وانظر إلى دقة النظم في تنصيب الغنى والفقر حالا، فهو متلبس بهما أيما تلبس.

وقد وظف السجع (الأسباب، الأحباب، الحساب) ليقرع الأسماع بالنغمات المتماثلة التي ترجف لها القلوب وجَلًا من الموت وما بعده.

(وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي) يقدم الدليل على أنه ناصح أمين، لا يتعالى عليهم بالموعظة ويعد نفسه من الذنوب براء، ويلاحظ أنه قد أكد بالقسم، و(إن) و(اللام) عادًّا نفسه أكثر الناس ذنوبا، مستعملا النكرة (أحد) التي تفيد العموم، أي كل أحد أقل مني ذنوبا. والجملة من تقريريات (سيرل) حيث التأكيد المعبر عن درجة الشدة المتضمنة في

القول، وهي مبنية على افتراض مسبق هو أن الناس يمكن أن يعتقدوا أنه مغتر بطاعته وأن العظة لهم وحسب، أو أنه يرى أنه أقل منهم ذنوبا.

ثم يستغفر من تلك الذنوب (فأستغفر الله لي ولكم) والجملة خبرية قصد بها الدعاء، وتعد من (الاستلزام الحواري) والقول بوضع الخبر موضع الإنشاء لغرض الدعاء -على ما جاءت به البلاغة العربية- يغني عنه، (لي ولكم) استراتيجية تضامنية سبقت الإشارة إليها.

(وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ولحمتي الذين يَلُونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم) يظهر في هذه الفقرة حرصه على كفاية الرعية وسد حاجاتهم، والتكافل معهم، مستعملا الحصر، فأيا كانت الحاجة فهو يقوم بسدادها ما اتسع لها ما عنده، ويلاحظ أنه استخدم الفعل الماضي في قوله (سددناها) ليفيد تحقق الوقوع، ويكون برهانا على صدق القول والنية، وتعد الجملة من الأفعال الكلامية الالتزامية، حيث يلزم المتكلم نفسه بفعل في المستقبل عن صدق وإخلاص.

ويكني عن التكافل بقوله (يده مع يدي، ولحمتي الذين يَلُونني) ثم يصرح بقوله (حتى يستوي عيشنا وعيشكم) فتلك هي الغاية التي يريدها، يريد أن يستوي عيشه بعيش الرعية، وهو يبني على افتراض علو مستوى عيشه على عيش الرعية، كما أنه يسوي بين الرعية وقرابته، أي أنه لا يحابي أحدا على أحد.

وقد جاء التركيب في صورة القصر؛ للتأكيد على استقصاء كل الحاجات التي ترفع إليه لإيقاع السداد عليها، ويكرر القسم (وايم الله إني لو أردتُ غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان مني ناطقا ذلولا، عالما بأسبابه) يريد أنه يستطيع تحصيل عيش فوق هذا (لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة)

يحثان على القصد والاعتدال، وتنكير (كتاب، وسنة) للتعظيم، مما يزيد في الإذعان لهما وطاعة ما جاء فيهما.

وانظر إلى تقديم الجار والمجرور (من الله) على الفاعل (كتاب) كيف يبادر ببيان سبب الإذعان والطاعة، إنه كتاب من السلطة العليا التي لا يرد لها أمر، ولا يجادل لها في حكم، ويعد التقديم هنا من آليات الحجاج البلاغية، التي يعلل بها إعراضه عن فخامة العيش، وإيثاره الزهد.

ويوظف المقابلة لخدمة الغرض بقوله (دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته) فالجملتان متقابلتان توضحان شمول الكتاب والسنة، وإرشادهما إلى الطاعة، وتحذيرهما من المعصية، ومن الطاعة خفض العيش والتكافل، ومن المعصية ترك الرعية يعانون الحاجة والعوز.

يقول الراوي: (ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه، ثم نزل، فلم يُرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله).

وقد دل الراوي على غزارة الدمع بالتعبير بجمع الكثرة، وحاجته إلى التلقي بطرف الرداء، وهذا دليل على شدة وجله، وعظم تأثره، وصدق موعظته، وأحرى للتأثير في المخاطبين؛ إذ البكاء هنا يرسم شخصية المرسِل صادقة، رقيقة القلب، يقظة الضمير، تجل الله وتخشاه، وتقف عند حدوده، بل تتسم بالزهد والورع.

وصدق المرسِل يؤول عند المرسَل إليه إلى تصديق الخطاب والقناعة بفحواه، ويدفع إلى الامتثال والاقتداء، وتلك غاية تداولية.

وأما قوله: (فلم يُر على تلك الأعواد ...) فيدل به على أنها آخر خطبة له، وكأنها وصية الميت التي يجب الحرص على تنفيذها.

والإشاريات الشخصية: يغلب فيها ما يعود على جمهور المخاطبين، حيث ضمائر الخطاب المتصلة والمنفصلة و(واو) الجماعة المتصلة بالأفعال، فهم محور الخطاب، والمقصودون بالموعظة، وبؤرة اهتمام الخطيب، فكان لا بد من شغلهم مساحة واسعة من الخطاب؛ ليسمعوا ويعوا ويستجيبوا للوعظ.

ثم لما أراد التعبير عن الميت الذي انزوي وغاب عن الحياة ناسبه ضمير الغائب بارزا ومستترا في قوله (قد قضى نحبه وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير مُوسَدٍ ولا مُمهَدٍ، قد خلع الأسبابَ، وفارقَ الأحبابَ، وواجه الحسابَ، مرتَهَنًا بعمله، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قَدَّمَ) ففرقٌ بين نوعي الضمير (الحضور، والغياب).

أما إشاريات الخطيب فقد أخرها إلى آخر الخطبة، تواضعا وإنكارا للذات (إني لأقول، أعلم، عندي، أستغفر، تبلغنا، عندنا، سددناها، وددت، لحمتي، عيشنا، أردت، مني) ويلاحظ أن الضمير المتصل (نا) لم يستعمل تعظيما لنفسه – على حد قول النحاة إنه لجمع المتكلمين أو المفرد المعظم نفسه– وإنما استعمله ليبث الثقة والطمأنينة في نفس المتلقي فيما يعد به من كفالة وضمان، وكأنه يقول أنا كفيل بسدادها كما لو تكفل بها جمع من الناس، إن أخل واحد نفذ البقية، فسدادها نافذ على أية حال.

والإشاريات الزمانية تمثلت في (غدًا) وهي مستقبلية المقصود بها يوم القيامة، واستعمال الغد إشارة إلى القرب، وبالتالي قرب تحقق الأمان المرغَّب فيه.

و(الجنة) إشارية مكانية تدل على عظم الخسران الذي لحق من حُرِمها؛ إذ حرم من مكان النعيم الخالد على سعته، و(الصدع) إشارية مكانية تعني الفناء وغياب الأثر واختفاءه.

الخطبة الخامسة عشرة: حث الشاكين على الرجوع إلى بلادهم

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله: حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس. الحقو ببلادكم، فإني أنساكم عندي، وأذكركم ببلادكم، ألا وإني قد استعملت عليكم رجالا، لا أقول هم خياركم، ولكنهم خيرٌ ممن هم شرٌّ منهم، ألا فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي[1]، ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضننت به عليكم إني إذن لضنين، والله لولا أن أنعش[2] سنة، أو أسير بحق، ما أحببت أن أعيش فَواقا".[3]

ينادي الناس للفت انتباهم متخطيا أداة النداء رغبة في الوصول السريع إلى الآذان ومنها إلى القلوب والأذهان، ثم يذكر ما نادى لأجله، ذلك أن العاصمة امتلأت بالناس من مختلف أرجاء الدولة الإسلامية، فهو يحثهم على العودة إلى بلادهم، فإذا لحقهم ظلم ممن ولاهم عليهم فلهم أن يدخلوا عليه بلا إذن.

فالأمر (الحقوا) غرضه الحث، وغايته التداولية دفع الناس إلى الرحيل عن دمشق واللحاق ببلادهم، ثم يعلل الأمر ويرغِّب في تنفيذه بقوله (فإني أنساكم عندي، وأذكركم ببلادكم) مستعملا التوكيد لأن مضمون الجملة مما يمكن أن يشك فيه المخاطب؛ إذ الحضور أدعى للذكر لا النسيان، لكن الأمر عنده مختلف، ينساهم بحضورهم عنده في العاصمة، ويذكرهم ببلادهم، ربما لأنه مثلا يتابع أحوال العاصمة بسجل من فيها وهم ليسوا منها، لكنهم في سجلات بلادهم فهم هناك ينالون المتابعة حتما، والجملتان حجتان قويتان تدفعان الناس إلى الرحيل

---

(١) أي يدخل علي بلا إذن، لا يحول بيني وبينه حاجب (جمهرة خطب العرب، ٢/٢١٢).

(٢) نَعَشَه اللَّهُ يَنْعَشُه نَعْشاً وأَنْعَشَه رَفَعَه (لسان العرب / نعش).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٨٩، ٢٤٧، ولابن عبد الحكم ص٤١، والجمهرة، خطبة رقم ١٩٨، ٢/٢١٢.

عن العاصمة، وقد وظف فيهما فنية التقابل؛ ليتضح الضد بضده، فيختار المخاطب أفضلهما، معبرا بالمضارع ليفيد التجدد والاستمرار.

(ألا وإني قد استعملت عليكم رجالا ...) يستهل الجملة بـ(ألا) لينبه ويحقق ما بعدها، ثم يؤكد ما بعدها بـ(إن) و(قد) فاجتمعت على الجملة ثلاثة مؤكدات؛ ليقنع المخاطبين بمضمونها ليلحقوا ببلادهم وهم على بينة وبصيرة بأن من ولاهم عليهم من الأخيار، فلن يُضاموا في بلادهم.

والجملة من الأفعال الكلامية التقريرية المتضمنة درجة الشدة في القول على حد قول التداوليين.

ويستخدم فنية التقابل مرة أخرى في قوله (ولكنهم خيرٌ ممن هم شرٌّ منهم) أي الخيرية متوفرة فيهم، أي ليسوا بشرار القوم، فإذا قارنتموهم بمن هو شر منهم بان لكم حسنهم وصلاحهم.

ويكرر (ألا) في قوله (ألا فمن ظلمه عامله بمظلمة) لينبه على أمر جلل لم يعهد من خليفة قبله، هو الدخول عليه بلا إذن حين التعرض لمظلمة، ويعبر بالنكرة (مظلمة) ليفيد العموم لكل المظالم صغيرها وكبيرها، وأيا كان نوعها في المال أو الولد أو النفس أو غيرها يحق لصاحبها أن يدخل عليه بغير إذن طلبا سريعا لرفعها، وإحلال العدالة محلها، ورد الحقوق لأصحابها.

وجملة (فلا إذن له علي) ينشأ عنها استلزام حواري هو أنه صاحب حق يبيح له الدخول على الخليفة بلا إذن؛ ذلك أن مظلمته تمثل تصريح الدخول.

(ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضننت به عليكم إني إذن لضنين) تنتج الجملة استلزاما حواريا هو أنه منع نفسه وأهل بيته هذا المال ليكون للرعية، ويصدر حكما على نفسه أنه إن بخل به على الرعية فهو متهم، وقد حشد للعبارة المؤكدات مما يدل على عنايته البالغة بتقريرها وتمكينها لدى

المخاطبين، إذن هو يريد أن يقنع الناس بأن هذا المال لهم، وقد آثرهم به على نفسه وأهل بيته، والتأكيد من الآليات اللغوية المستعملة في الحجاج.

وفي الكلام قياس يمكن هيكلته هكذا:

منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال.

إن ضننت به عليكم فأنا متهم مذموم.

ن: المال لكم.

واستعمال (إن) الشرطية (إن ضننت) المفيدة للشك والندرة يؤيد عزم الرجل على إيصال الحقوق إلى أصحابها، ووضع المال موضعه الذي ينبغي؛ إذ البخل به على الرعية ومنعهم إياه أمر مشكوك فيه.

واعتراض (إذن) بين اسم (إن) وخبرها يحدد زمن وصفه بـ(ضنين) بزمن منعه الرعية، إذن هو واثق بأن ذلك المنع لن يكون.

إذن يرمي إلى إقناعهم بالرجوع إلى بلادهم على نفقات بيت المال، وستتبعهم عطاياهم أو نصيبهم من العطاء أينما كانوا.

ويزين الفقرة ويربط بين أولها وآخرها بمحسن بديعي هو رد العجز على الصدر (ضننت .... ضنين) الذي يمثل رابطا من روابط التذكر، ونغمة موسيقية تثري النص ويجعل الألفاظ تتردد على الأسماع فتتأكد دلالتها في القلوب.

(والله لولا أن أنعش سنة، أو أسير بحق، ما أحببت أن أعيش فَواقا) يؤكد بالقسم أنه لا يتعلق بالدنيا ولا يحرص على أن يعمر، وأنه يود مرورها سريعا؛ ليصل إلى دار المقر، فهو لا يتعلق بها إلا ليرفع سنة، أو يحق حقا، ولولا هذان الغرضان لما أحب العيش ولو مدة قصيرة.

ويلاحظ أنه نكَّر (سنة، حق) توخيا للتعظيم، فهما اللذان يستحقان الحياة لأجلهما.

وقوله (ما أحببت أن أعيش فَواقا) كناية عن قصر المدة، وبدلا من أن يقول: ما أحببت أن أعيش يوما أو ساعة مثلا، آثر هذه الصورة المنتزعة من البيئة العربية؛ لتحمل دلالة أن هذه الفترة -وإن كان ينتظر أن تنتج- لا يرغبها، فالمدة الزمنية الفاصلة بين الحلبتين يبدأ اللبن فيها في التجمع في الضرع، أي أن خيرها آتٍ، ولكن بعد حين، لكنه يريد الخير المتحقق بلقاء الله -تعالى- والخلاص من الدنيا وأوزارها.

وتنكير (فواقا) للتقليل، وعبر بالمصدر المؤول (أن أعيش) ليدل على التلبس بالفاعل، أي لا يحب العيش لنفسه، ويلاحظ أنه عبر بالمضارع في (أنعش) و(أسير) لرغبته في تجدد الفعلين، على حين عبر بالماضي في (ما أحببت) رغبة في تجاوز الفعل.

والاستلزام الحواري للجملة هو نبذ الدنيا، ورفض التعلق بها، الذي يلمح إلى تزهيد الناس فيها، وهو الغرض البلاغي أو المقصد من الخبر كما تقول البلاغة العربية.

وقد تحققت نجاعة الخطاب؛ إذ "سال الناس إلى بلادهم فرحين أن تلحق بهم العدالة في الطريق" [1]

١) الخليفة الزاهد ص١٤٤.

الخاتمـــة

قام البحث بتطبيق الدرس اللساني التداولي على الخطاب العربي ممثلا في خطب عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه– مع الربط بين البلاغة والتداوليـــة، بما للتداولية من جذور في البلاغة العربية، فجاء التحليل مزاوجا بينهما.

وقد توفرت الخطب على عناصر سياقية، واستراتيجية توجيهية، وأدلـــة حجاجية، وكان لها نواتج تأثيرية على المخاطبين؛ مما جعلها مجالا خصبا لتلـــك الدراسة.

وبعد العرض والتحليل توصل البحث إلى مجموعة من النتائج:

-أن للتداولية جذورا ضاربة في البلاغة العربية.

-التداولية من البلاغة في الصميم، ولا غنى للتداولية عن البلاغة.

-التداولية تؤثر في تشكيل النص تشكيلا بلاغيا حين يستدعي السياق التأكيـــد أو الفصل أو الوصل.....، وقديما قالوا: البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

-تتداخل البلاغة والتداولية أحيانا، وأحيانا تكون التداولية ظـــل البلاغـــة الـــذي يتبعها.

- إذا كان في النص صورة بيانية فإن الحجاج -الـــذي هـــو مـــن أهـــم قضـــايا التداولية– ظل لها، ويتمثل ذلك في إقناعها بما لها من وظيفة استدلالية.

-يغلب على الخطب التأكيد، وهو يدخل ضمن الأفعال الكلامية التقريرية المتضمنة درجة الشدة في القول، ويرجع هذا إلى رغبة المرسِل في إقناع مخاطبيه بمـــدلول خطبه، ودفعهم إلى السلوك المرتجى من الخطاب.

-يعد الافتراض المسبق الذي تقول به التداولية من (الإيجاز) في البلاغة العربية، حيث يستغني السياق المقالي عن ذكر ما هو مفهوم من المقام، وهـــو -أيضـــا-

جزء مما يعلمه المتكلم من حال المخاطب، فيراعيه في تشكيل خطابه، والمخاطب -بلا شك- جزء من المقام أو الحال في البلاغة العربية.

-الاستلزام الحواري هو المعاني الثواني أو المجازية أو الأغراض والمقاصد في البلاغة العربية، فالتداولية في هذا الصدد لم تأتِ بجديد حيث يستعمل جرايس (١٩٧٥) مصطلح المعنى الضمني للحديث عما يمكن أن يضمنه أو يوحي به أو يعنيه متكلم ما فوق ما يصرح به ظاهر كلامه [١] وهذا ما سبق إليه عبد القاهر في نظرية المعنى ومعنى المعنى.

-يتداخل الاستلزام الحواري مع القوة المتضمنة في القول للأفعال الكلامية والناتج التأثيري حتى يتحدا، وهذا تعديد للمصطلحات التداولية والمؤدَّى واحد.

-عنيت الإشاريات بطرفي التخاطب (المتكلم والسامع) عبر ما يتضمنه النص من ضمائر المتكلم وضمائر المخاطب، وهما -أيضا- محل اهتمام البلاغة العربية وعليهما مدارها؛ فطبعي أن يوجد في النص ما يشير إلى كل منهما، كما أن الزمان والمكان والعلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين كلها معتبرة في البلاغة العربية؛ إذ تندرج تحت مصطلح (المقام) يبقى للتداولية عمق تحليلها لتلك العناصر للوصول إلى دلالات خفية تستشف من السياق.

-تتفق البلاغة والتداولية في " دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختيار أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن قصده كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلم والمقاصد من الكلام" [٢]

-البلاغيون العرب لهم قصب السبق في ربط المقال بالمقام.

---

(١) تحليل الخطاب، ج ب .براون ، ج. يول ، ص٥١.

(٢) تحليل الخطاب، براون، يول، ص٣٢.

-الجديد الذي تقدمه التداولية التوسع في تحليل الخطاب اعتمادا على توسيع العناية بالسياق، وهذا -بلا شك- يخدم النص ويزيد في الكشف عن مضامينه.

-امتلاك عمر بن عبد العزيز فلسفة لغوية، وبلاغة عالية، وقدرة حجاجية يستطيع الوصول بها إلى ما يريد.

يوصي البحث بضرورة الكشف عن جذور النظريات والمناهج الحديثة في أصول التراث العربي لإنصافه، والاستفادة من معطياتها في تحليل النصوص العربية.

المصادر والمراجع

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية –الإسكندرية ٢٠٠٢م.
- اتجاهات التحليل الزمني في الدراسات اللغوية، محمد عبد الرحمن الريحاني، (د.ط) دار قباء–القاهرة (د.ت).
- استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط ١ دار الكتاب الجديد المتحدة –بيروت ٢٠٠٤م.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/محمود شاكر، ط١ المدني، القاهرة، جدة ١٩٩١م.
- الإشارات والتنبيهات، محمد بن علي الجرجانى، تحقيق أ.د/عبد القادر حسين، (د.ط) مكتبة الآداب ١٩٩٧م.
- إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق/ السيد أحمد صقر، (د.ط) دار المعارف –مصر (د.ت).
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه/ الأستاذ عَبد أ. علي مهنا، ط٢ دار الفكر (د.ت).
- الأمالي، لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب –القاهرة ١٩٧٦م.
- البحث اللساني والسيميائي، طه عبد الرحمن، كلية الآداب والعلوم–الرباط ١٩٨١م.
- البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، ضمن أعمال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، سلسلة اللسانيات ع٦، المطبعة العصرية –تونس ١٩٨٧م.
- بغية الإيضاح، الشيخ عبد المتعال الصعيدى، مكتبة الآداب ١٩٩٩م.

- البيان والتبيين، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال-بيروت ١٤٢٣ ه.
- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي تحقيق/ حمدي الدمرداش، ط١ مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، دار سحنون -تونس ١٩٩٧م.
- تحليل الخطاب، ج ب .براون ، ج. يول ، ترجمة وتعليق /د. منير التريكي ،د. محمد لطفي الزليطني ،جامعة الملك سعود -الرياض ١٩٩٣م.
- التداوليات وتحليل الخطاب، جميل حمداوي، ط١، ٢٠١٥م.
-التداولية، جورج يول، تر/د. قصي العتابي، ط١ الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت، دار الأمان -الرباط ٢٠١٠م.
- التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، آن روبول، جاك موشلار، تر/ د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، مرجعة د. لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ط١ دار الطليعة للتوزيع والنشر -بيروت ٢٠٠٣م.
- التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) د. مسعود صحراوي، ط١ دار الطليعة -بيروت ٢٠٠٥م.
- التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، تر/ صابر الحباشة، ط١ دار الحوار للنشر والتوزيع -سورية ٢٠٠٧م.
- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (العصر الأموي)، أحمد زكي صفوت، ط١ المكتبة العلمية -بيروت ١٩٣٣م
- الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ط١ دار الكتاب الجديد المتحدة-بيروت ٢٠٠٨ م.
- الحجاج مدخل نظري وتطبيقي، محمد الولي، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، تحرير

وإشراف /حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، ودار الروافد الثقافية ناشرون –الجزائر، بيروت ٢٠١٣م.

- حجاجية المجاز والاستعارة، د. حسن المودن، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته – دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، مجموعة من المؤلفين، إشراف/حافظ إسماعيلي علوي، ط١ ابن النديم للنشر والتوزيع – الجزائر، روافد الثقافة ناشرون –بيروت ٢٠١٣م.

- خطاب الحجاج والتداولية –دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عباس حشاني، ط١ عالم الكتب الحديث –إربد٢٠١٤م.

- الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، عبد العزيز سيد الأهل، دار نهضة مصر – القاهرة (د.ت).

–دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود شاكر، ط٣ المدني –جدة والقاهرة ١٩٩٢ م.

- سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم، تحقيق أحمد عبيد، ط٦ عالم الكتب –بيروت ١٩٨٤م.

- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، ابن الجوزي، ضبطه وشرحه وعلق عليه/ الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية –بيروت ٢٠٠١م.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، الأشموني، ط١ دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، راجعه وحققه/ إبراهيم محمد صقر، ط١ مكتبة مصر–القاهرة ٢٠٠٨ م.

- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية –بيروت ١٤١٨ هـ.

- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، أحمد المتوكل، ط١ دار الأمان – الرباط، منشورات ضفاف –بيروت، منشورات الاختلاف –الجزائر ٢٠١٣م.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق/ أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ط٣ إحياء التراث العربي – بيروت ١٩٩٩م
- اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ط٢ المركز الثقافي العربي –الدار البيضاء ٢٠٠٦م.
- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ط١ المركز الثقافي العربي –بيروت، الدار البيضاء ١٩٩١م.
- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط١ العمدة في الطبع ٢٠٠٦م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، □ام حسان، ط ٥ عالم الكتب، ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م.
- مروج الذهب، المسعودي، المطبعة البهية المصرية –القاهرة ١٣٤٦ ه.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط٢ دار صادر–بيروت ١٩٩٥م.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، تر/ سعيد علوش، مركز الإنماء القومي –الرباط ١٩٨٦م
- النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة/ عبد القادر قنيني أفريقيا الشرق ٢٠٠٠ م.
- نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) أوستين، تر/ عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق –الدار البيضاء ١٩٩١م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص	١٧٥٦
المقدمة	١٧٦٠
التمهيد .	١٧٦٥
الخطبة الأولى: شورى فقهاء المدينة	١٧٧٧
الخطبة الثانية: لا مهرب من الموت	١٧٨١
الخطبة الثالثة: التقوى	١٧٨٧
الخطبة الرابعة: مُنفِّذ لله	١٨٠١
الخطبة الخامسة: التذكير بالبعث	١٨٠٥
الخطبة السادسة: التحذير من الدنيا	١٨٠٨
الخطبة السابعة: دعوة إلى التكافل	١٨١٨
الخطبة الثامنة: الإمام الظالم عاصٍ لا الهارب منه	١٨٢٢
الخطبة التاسعة: التخلص من القطائع وردها إلى بيت المال	١٨٢٨
الخطبة العاشرة: الحث على التزود للآخرة.	١٨٣٣
الخطبة الحادية عشرة: في وصل الإخوان والقناعة والزهد	١٨٤٣
الخطبة الثانية عشرة: في خطورة العمل بلا علم، والحث على الصبر	١٨٥٣
الخطبة الثالثة عشرة: في نبذه الدنيا حتى أبكى الناس	١٨٥٦
الخطبة الرابعة عشرة: تذكيرٌ بالموت وحرصٌ على كفاية الرعية	١٨٦٠

الموضوع	الصفحة
الخطبة الخامسة عشرة: حث الشاكين على الرجوع إلى بلادهم	١٨٦٨
الخاتمة	١٨٧٢
المصادر والمراجع	١٨٧٥
فهرس الموضوعات	١٨٧٩